التزكية للمصلحين

مصطفى ابرواي


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين وصلِّ اللهُم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه مادة جديدة من المواد المتعلقة بالإنسان المسلم في طريقه الإصلاحي، الإنسان الذي يرجو أن يكون له أثر طيب، وله أثر حسن، وأن يكون نافعا للناس. هذه المادة تُعنى بأهمية، ومركزية، وتأثير التزكية في طريق المصلح.

كثير من الناس اليوم يتحدثون ويركزون على أمور مهارية يحتاجها المصلح أكثر من التركيز على المكوّن الذاتي الداخلي الإيماني بالنسبة للإنسان المصلح، وهذه القضية لها تأثيرٌ خطيرٌ جدًا؛ لأن تخريجَ مُصلح يمتلك أدوات إصلاحية خارجية وهو يتوهم أنه مؤهل للإصلاح؛ وهمٌ خطير جدًا، لأنه لن يكون مؤثرًا أو نافعًا، بل قد يؤدي إلى نتائج سلبية وعكسية.

ولأجل ذلك جاءت هذه المادة، وسنتناول فيها في البداية إن شاء الله مفاهيم أولية مرتبطة بالتزكية من حيث مركزيتها في الإسلام، ومركزيتها في حياة النبي ﷺ، وتأثيرها سلبًا وإيجابًا إذا تحققت أو إذا فقدت، وبعد ذلك بإذن الله سنتكلم عن قضايا محددة تعترض طريق المُصلح، وسننظر كيف أن التزكية ستكون مؤثرة ومعالجة لها بإذن الله تعالى.

وبالله التوفيق

---

[1] هذا تلخيص لمحاضرات التزكية للمصلحين للأخ الحبيب سيدي أحمد يوسف السيد حفظه الله، قام بإعداده الطالب مصطفى ابرواي.

مركزية التزكية

مركزية التزكية تكون من أربع جهات:

الجهة الأولى: مركزيتها في القرآن الكريم.

الجهة الثانية: مركزيتها في حياة النبي ﷺ.

الجهة الثالثة: مركزيتها من جهة آثارها الحسنة.

الجهة الرابعة: مركزيتها من جهة الآثار السيئة المترتبة على فقدانها أو تركها.

الجهة الأولى: مركزية التزكية في القرآن الكريم:

الفَقيهُ في الدين حقا والذي يفقه عن الله ﷻ خطابَه صدقا هو الذي يدرك المركزيات والأولويات وترتيبها، ثم يتعامل مع الإسلام في ضوء أولويات الشريعة، فالنبي ﷺ لَمَّا سأل أُبي بن كعب عن أعظم آيةٍ في كتاب الله، أخذ أُبي يفكر! ووقف عند آية الكرسي، جذبه إليها المعاني المركزية الموجودة فيها، فقال: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ الحَيُّ القَيّومُ﴾ فضرب النبي ﷺ في صدره قائلًا: «**واللهِ لِيَهنِكَ العلمُ أَبَا المُنْذِر**». هنا تأتي المراتب، فإدراكهُ أن هذه الآية أعظم هو الذي جعل النبي ﷺ يقول له مقولته، لذلك لم يكن العنوان: "التزكية في القرآن" وإنما كان "مركزية التزكية في القرآن"، حتى يُدرك الإنسان ما هي قيمة وأهمية التزكية في كتاب الله ﷻ.

- **بعض الآيات التي تبين قيمة التزكية ومركزيتها:**

أولا: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾. أنت عندما تأتي وتؤكد قضية خطيرة جدا، لن تُقسِمَ عليها بأي قسم، بل تجدُ نفسك تُعبر بأقسام غير معتادة، فإذا كنت

تقول مثلا: «والله» فستقول: "أقسمُ بآيات الله" أو "والله الذي لا إله إلا هو إنّي لصادق..." فأنت هنا تؤكد القسم وتكرره، ولله المثل الأعلى، فقد كرر سبحانه القسم إحدىٰ عشر مرة، معنىٰ ذلك أن جواب القسم عظيم ومهم ومركزيٌّ، فانتبه!

فما هو جواب القسم؟ جوابه هو: ﴿قَد أَفلَحَ مَن زَكّاها﴾.

فإذا أردت أن تفقه دين الله تعالىٰ، فلا ينبغي أبدًا أن تتعامل مع ملف التزكية –بعد كل هذا– علىٰ أنه من الواجبات فقط! بل هو قضية مركزية جدا.

ثانيا: الله ﷻ يذكر الجنّة، ويذكر فيها أمورًا، ثم يبين أن الجنة والنعيم؛ جُعل جزاء للتزكية، ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

كيف نعرف مركزية التزكية في القرآن؟

أولا: من النصوص المؤكّدة لمركزية التزكية وأهميتها، مثل القسم الذي في سورة الشمس.

ثانيا: من كثرة تكرار قضية التزكية في كتاب الله ﷻ، حتىٰ أنك تجد هذا في أغلب سور القرآن؛ لأن التزكية هي تخليةٌ وتحليةٌ. أما التخلية؛ أي التَّخلِي عن الشوائب التي تلحق بالنفس، والأهواء والأمراض التي تعصف بالقلب، كالكبر، والغرور، والرياء، والنفاق، والشك، والحسد... وأما التحلية؛ أي تنمية القلب بالخشيَة، والمحبة، والإنابة، والخضوع، وما إلىٰ ذلك. هذه كلها تزكية.

ثالثا: كثرة متعلقاته وآثاره الحسنة.

الجهة الثانية: مركزيتها في حياة النبي ﷺ:

- **أمثلة تُبين مركزية التزكية في حياة النبي ﷺ**

أولا: الله ﷻ اختصر حياة النبي ﷺ ووظائفه التي عملها في حياتهِ الشريفة في ثلاثة عناوين، فقال ﷻ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]، أنت قد تنظر من جوانب أخرى في حياة النبي ﷺ فتتناول جهات أخرى، لكن الفكرة هنا أن هذه هي العناوين الكبرى التي حرص النبي ﷺ على أدائها، وباقي الأعمال إنما هي مندرجة تحتها.

ومعنى هذه الآية مكررٌ في كتاب الله تعالى، وذلك في دعوة إبراهيم: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]. وفي سورة البقرة أيضا: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: 151].

إذا فالنبي ﷺ أُرسل ليُزكّي، فلا يجوز بعد ذلك في أي سياقٍ إسلامي، ولا أي سياق إصلاحي ولا غيره أن تكون التزكية على الهامش، فأي سياق يضخِّم الكثير من الأمور الإجرائية والمهارية وما إلى ذلك ويقلل من قيمة التزكية؛ فهذه قضية فيها مخالفة لمركزيات النبي ﷺ.

ثانيا: كان النبي ﷺ ينبهُ أصحابه –في السياقات التي لا تتخيل أنه من الممكن أن يكون فيها احتياجٌ للتنبيه– على أهمية التزكية، كالتنبيه عليها في أعلى مراحل النصر والتمكين الذي

تحقق بالجهاد في سبيل الله، جاء في صحيح مسلم: «إذا فُتِحَتْ علَيْكُم فارِسُ والرُّومُ، أيُّ قَوْمٍ أنتُمْ؟ قالَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كما أمَرَنا اللَّهُ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أوْ غيرَ ذلكَ، تَتَنافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدابَرُونَ، ثُمَّ تَتَباغَضُونَ، أوْ نَحْوَ ذلكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ في مَساكِينِ المهاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ علَى رِقابِ بَعْضٍ». لاحظ أن هذا التنبيه على قضية التزكية جاء في سياق جهاد صاف لا يوجد به غبشٌ، ولا يوجد فيه إشكالات، وتوجد نوايا صادقة صافية في الفتح والتمكين للإسلام ومع صحابة رسول الأنام ﷺ، فإذا كان التنبيه على مركزية وأهمية التزكية في مثل هذا السياق؛ فما بالكم بما دونه من السياقات؟؟

لذلك من الخطأ الكبير الموجود في كثير من التصورات أنه تُغيَّا المشاريع: أي تُجعل لها غايات، كتحقيق نصرٍ معينٍ؛ فإذا تحقق هذا الإنجاز بلغنا الغاية، بينما في الإسلام تجد أن مرحلة الوصول إلى الثمرات الكبرى ليست إلا مرحلة من المراحل فقط، وليست هي الغايات. لذلك نجد أن موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ثم ماذا؟ ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩﴾ فهنا يبدأ الامتحان.

وقبل وفاة النبي ﷺ بأيام، قال ﷺ لأصحابه: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم».

ثالثا: من الأشياء أيضا التي تبين مركزية التزكية في حياة النبي ﷺ: أنه على المستوى التربوي العملي كان ﷺ يبدأ بقضية التزكية ويحرصُ عليها، ولذلك الحديث المشهور عن جُنْدُب رضي الله تعالى عنه قال: «كنَّا معَ النَّبيِّ ﷺ ونحنُ فتيانٌ حزاورةٌ فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ

أن نتعلَّمَ القرآنَ ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازددنا بِهِ إيمانا». فقد كان النبي ﷺ يفتحُ للقرآن القلوب، ويُهذبها، ويملؤُها بإذن الله تعالى باليقين والخشية، والإنابة، فتكون صالحة لتلقي القرآن.

رابعا: هناك نقطةٌ أخرى مركزية في أهمية التزكية عند النبي ﷺ، وهي أنها أخذت الحيز الأكبر في المرحلة المكية، فحياة النبي ﷺ بعد البعثة تنقسم إلى مرحلة مكيّة ومرحلة مدنيّة، والمرحلةُ المكيّة أطول من المرحلة المدنيّة، مع أن الثانية كانت الأكثر من حيث الأحداث والغزوات، لكن المرحلة المكية ركز فيها النبي ﷺ على أمرين مهمين وهما: الأمر الأول: تزكية أصحابه، والتربية العملية لهؤلاء الثُلّةِ التي لديه على أعز المعاني وأعظمها. الأمر الثاني: خطاب المشركين، ودعوتهم، ومحاجّتهم، ومجادلتهم.

ولذلك أنت اليوم تعيش في واقع مشتبك اشتباكا إلى أبعد مدى، فيه مؤثرات اجتماعية وفكرية وثقافية سلبية وخاطئة ومنحرفة إلى أبعد مدى، واقع فيه ظلمٌ وتسلّط... وإذا أردت أن ترجع لحياة النبي ﷺ؛ فإن واحدة من أهم المعالم التي يمكن أن تُقتبس من حياته ﷺ هي المعنى الذي صنعه ﷺ في مثل تلك الأحوال، وهو تربية وتخريج أناس على مستوى عال من الإيمان واليقين والصبر والثبات والعمل وما إلى ذلك.

الجهة الثالثة: مركزيتها من جهة آثارها الحسنة:

أولا: من الناحية الذاتية والنفسية:

1- الصبر على المصائب: الإنسان لا يزال في بلاءات قد تقلب حياته وتؤثر في مسيرته، ويمكن أن تُرديَه في النار، ولا مجال ولا سبيل ولا طريق لتجاوز هذا الإشكال إلا بالتزكية.

ومن أكثر الأدعية التي تدعى في رمضان في الوتر «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصائب الدنيا»، وإلّا فكيف للإنسان أن يصبر؟

فمن أعظم آثار التزكية الذاتية أن تُهَوِّن على الإنسان مصائب الدنيا، ليس فقط أنها تهون، بل لك أن تقول: من الصعب جدا أن يحقق الإنسان أمر الله بالصبر عند المصائب إذا لم يكن عنده تزكية.

المرأة التي كانت تبكي وقال لها النبي ﷺ: «اتقي الله واصبري»، قالت: «إليك عني فإنك خِلْوٌ من مصيبتي»، ثم قيل: هذا النبي ﷺ، فذهبت لرسول الله، فقال: «إنما الصبر عند أول صدمة». وهذا لا يتحقق إلا بالتزكية، فبالتزكية يصبح الإنسان صبورا بالسليقة والعادة، فالتزكية هي التي تنتج ردة الفعل الأولى بهذه المثابة. فإذا وصلت التزكية عند الإنسان إلى أن تكون هي التي تنتج آثارا وردّات الفعل الأولى بحيث لا يمكن أن يفقدها الإنسان في أي موقف؛ فهي إذا حالة الإنسان المؤمن التام الذي يُحدِث العجائب بمواقفه. فموقف هذه المرأة كان هو الموقف الطبيعي من حيث المشاعر البشرية، فهي لم تصل عندها التزكية إلى حد أن يكون الموقف الأول السليقي الذي يغلب الطبيعة أن يكون: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، ولذلك أنت تجد أن أغلب الناس تعبر عند المصائب بالتعبير الذي في خانة المرأة تلك، لكن بدرجات عالية طبعا.

ولأن الإسلام دين تكليف ولأننا في مرحلة اختبار؛ فالله تعالى يريد منا أن نضغط على هذه المشاعر، ونُبعِدها، وجعل لنا في ذلك متنفسا، وهذا هو الإسلام، حين تكون القضية فطرية يجعل لك فيها متنفسا، في قصة طالوت ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾؛ يعني جعل لك متنفسا، خذ لك شربة ماء، وفي الشهوات الجسدية، جعل لك متنفسا في الزواج...

فأنت كإنسان الموقف الشعوري الذي يمكن أن تعبر به عند المصائب هو أن تغضب وتحزن... لكن الذي يريد منك الإسلام أن تفعله هو أن تغلّف هذه المشاعر بغلاف التزكية فتتجاوزها وتجعل لها المتنفس الطبيعي؛ فإذا دمعت عينك وتحسّر قلبك فلا بأس، أما أن تُشقّ الجيوب، وتُضرب الخدود وغير ذلك من أعمال الجاهلية؛ فهذا ما حرّمه ديننا.

2- تُبعد عن الإنسان الأوهام النفسية: فمن أهم فوائد التزكية الذاتية أنها تجعل الإنسان يُعرِّف نفسه التعريف الذي يستحقه، فأنت كإنسان حتى لو كنت صالحا وحتى لو كنت نبيًا من الأنبياء، فينبغي أن تعرف قدرك، فالنبي ﷺ كان أكثر الناس تواضعا لله سبحانه، ففي أعلى مراحل نصره ﷺ في فتح مكة دخل وهو خاشع متواضع معترف؛ لأن في داخله يعلم أن هذا لم يكن ليتحقق لولا فضل الله وتوفيقه، بينما لو فقد الإنسان التزكية لهلك، قيل لقارون: ﴿إِلَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ فما كان جوابه؟ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ فهكذا يشعر كل إنسان فاقد للتزكية ولديه بعض المكتسبات، ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

إذن فمن أعظم الآثار الحسنة للتزكية على الذات: أن تجعلك تُعرّف ذاتك تعريفا لا ينفك عن معنى العبودية لله ﷻ، وبالتالي تتواضع وتشكر عند المكتسبات، وتصبر عند المصائب والنكبات، وتدور في هذا الفلك بين الصبر والشكر، وهذا هو المؤمن الذي لخص النبي ﷺ حياته بقوله: «عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر وكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن». وهكذا فإذا لم تفقد التزكية لا تقع في قضية الاغترار في طريقك الإصلاحي وعند المكتسبات، لعلمك أن ذلك

فضل من الله عليك عظيما، ولو أن الله ﷻ قطع عنك مَدَدَه قليلا، وأزال الستر بينك وبين أعين الناس لتركوك وهجروك، فلا تنس فضل الله عليك، ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إليك رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إليك هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الغافلين عن هذه المعاني، عن هذه الأمور، عن هذا الوحي الذي أنزله الله إليك، هو منّة من الله لك، وكما أنه منّة من الله ﷻ على النبي ﷺ، فهو منة من الله علينا أيضا بأن بعث فينا هذا النبي ﷺ، فما كان بنا من هداية وخير وعلم وتوفيق، فهو من الله ﷻ وبما أرسل إلينا هذا الرسول الكريم ﷺ.

ثانيا: من الناحية الإصلاحية:

1- نسبة الفضل والتوفيق إلى الله تعالى: تبرز قيمة التزكية بالنسبة للإنسان المسلم في طريقه الإصلاحي في أنها تدفعه لأن ينسب المِنّة والفضل والتوفيق إلى الله ﷻ، فلا يغترّ.

2- الثبات: من الآثار الحسنة أيضا للتزكية من الناحية الإصلاحية؛ نجد الثبات. فأنت حين تكون في حالة رخاء، ربما قد تمر عليك في حياتك الشخصية مواقف صعبة قد تؤثر على مسيرتك وطريقك الدعوي أو الإصلاحي، سيما إذا اتسع النطاق عندك، وكثرت الأعمال، واتصلت بشرائح مختلفة ومتنوعة، وصرت محلا للحسد، فتحتاج عند هذه العقبات إلى الثبات، واعْلَم أن الثبات على الطريق ليس خاطرًا تُداعب به مشاعرك، فأنت لا تعرف نفسك حقا إلا عند الأزمات، فالكثير من الناس انتكسوا بسبب أزمات وابتلاءات معينة، فالثبات على الطريق الحق لا يكون إلا بتزكية عالية، لابد من الصبر واليقين، واليقين هو الباعث على الصبر، ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ توهموا أنهم سيصبرون عند الأزمات ﴿فَلَمَّا

كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، إلى لآن لم تبدأ المعركة، مجرد أن فُرض وكتب عليهم القتال ولوا مبكرا، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، هنا تبرز المعايير الفاسدة: ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ يأتي ويضع معاييره فوق معايير الوحي والله هو من اختار طالوت ملكا عليهم! ثم انطلق الجيش وفصل طالوت بالجنود، والآن امتحان للثلة المؤمنة، أو الثلة التي ليس بالضرورة أن تكون حققت كل شروط الإيمان، لكنها تجاوزت أولئك الذين لا يملكون إيمانا أصلا، ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ هذا اختبار الآن للخاصة داخل الطريق، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾! وورد في بعض الأحاديث أن الذين لم يشربوا كانوا بعدد أصحاب بدر، يعني ثلاثمائة وبضعة عشر. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ في اختبار شهوة الشرب على الظمأ والتعب والنصب نجحوا، والآن جاء اختبار آخر ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وهنا يأتي موضع الشاهد: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، يظنون أي يوقنون، وهذا اليقين هو الذي تحدثنا عنه.

إذن فإن من أعظم آثار التزكية على الإنسان المصلح أنها من أعظم أسباب الثبات عند الأزمات، وإذا قلنا الثبات عند الأزمات، فإننا نعني التزكية بشقيها، شق التخلية وشق التحلية، وهذه الأخيرة هي الأكثر فاعلية هنا، وتحتها الصبر واليقين.

الجهة الرابعة: مركزيتها من جهة الآثار السيئة المترتبة على فقدانها

هنا سنتجاوز كثيرًا من التفاصيل؛ فلن نذكر مثلا أثر فقدان التزكية على عدم الصبر عند المصائب، أو أثر فقدان التزكية على فساد العلاقات الاجتماعية الأسرية القريبة والبعيدة، ولكن سنتحدث عن الآثار السيئة لتخلف التزكية في الطريق الإصلاحي.

فبمجرد أن تُقلّب بصرك في الواقع تقليب الفاحص الناقد المتفهم البصير بمعاني الشريعة وبمعاني النفوس؛ ستدرك أن كثيرًا من المشكلات في الواقع الإسلامي هي في الحقيقة يكون ضعف التزكية إمّا سببًا أساسيًا فيها، أو يكون سببًا مؤثرًا فيها، ومن أبرز الصور التي تَحدُث بسبب ضعف التزكية:

أولا: **الحسد بين المصلحين أو العاملين**: وهذا الحسد قد ذكره الله ﷻ عن بني إسرائيل، وذكر النبي ﷺ أننا سنتبع سنَنَ من كان قبلنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾، ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا﴾! ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾! الحسد شعور طبيعي في الأساس لكنه حرام، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾، شغّل مطفأة الحريق، وتذكر نعم الله عليك، وانظر إلى من هو دونك، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾، أما إذا استسلمت لشعور الحسد، فلا تسألن حينها إلى أين يمكن أن يصل بك الحسد، يمكن أن يوصلك إلى الكفر أحيانًا.

ثانيا: **انحراف البوصلة**: بوصلتي هي العمل للإسلام، ولكن بسبب شركاء الطريق ونظرتي إليهم والاختلاف والحسد والتنازع معهم؛ انحرفت بوصلتي من العمل للإسلام وتحقيق الغاية إلى قطع الطريق مع أصحاب اليمين والشمال، وهذه مشكلة كبيرة موجودة في الواقع كثيرًا،

التنازع والتفرقة، فهي من العقبات التي تواجه المصلح في طريقه الإصلاحي، ومن أعظم أسبابها ضعف التزكية.

ثالثا: **الفتور أو التوقف والانقطاع:** نعوذ بالله من الحَور بعد الكور، تجد المرء يمشي في الطريق، فيطول عليه الأمد ويطول عليه الطريق، فيبدأ يفتر قليلًا قليلًا، لا توجد مغذيات للتزكية، ولا يوجد وقود إيماني عظيم يملأ قلب هذا الإنسان، بحيث أنه حتى ولو كان لوحده والكل ضده لا يستسلم أبدا ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ﴾، وفي صحيح البخاري قال ﷺ عند الحديبية: «والذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم حتى تنفرد سالفتي، ولينفذنّ الله أمره». والسالفة هي الرقبة، وقيل: هي كناية عن القتل، وقيل: تنفرد سالفتي أي: حتى أقاتلهم وحدي.

فكثرة المشكلات والخواطر والاستفهامات عند الإنسان في حياته تجعله يفتر ويفتر، وقد يظل في مرحلة الفتور، وقد يصل إلى مرحلة التوقف تمامًا، وقد يصل ونسأل الله العافية إلى مرحلة الرجوع إلى الخلف، وهذا كله من آثار ضعف التزكية.

خلاصة:

خلاصة ما سبق أن موضوع التزكية بشقيها التخلية والتحلية ليس موضوعًا هامشيًا ولا موضوعًا ثانويًّا ولا موضوعًا محدود الأثر، وإنما هو أمر مركزي في الصلاح الذاتي، وأمر مركزي في الطريق الإصلاحي، وأمر مركزي في السير إلى الله سبحانه وتعالى، وأمر مركزي في الثبات وفي الصبر على المصائب، وفي صلاح الأحوال، وفي التعريف بالنفس، وفي اتباع للنبي ﷺ، والله سبحانه وتعالى قد أقسم عليه بأحد عشر قَسمًا في كتابه، وهو من وظائف النبي ﷺ الكبرى.

وبناءً على ذلك كله؛ لِنُعِد ضبط العدَّادات والإعدادات والمعايير بالنسبة لنا في نظرتنا إلى قضية التزكية، وأنها متى ما كانت في الزاوية محصورة، أو كانت في رمضان فقط، أو كانت

واحدة من المفردات التكميلية؛ فلنعلم أن ما نحن فيه ليس شيئًا صحيحًا، بل هو خطر عظيم. فنسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يعطي نفوسنا تقواها، ويزكيها، هو خير من زكَّاها، هو وليها ومولاها.

معالم التزكية ووسائلها

المحور الأول: معالم التزكية:

إذا ذكرنا التزكية فنحن نتحدث من جهة المعالم عن مَعْلَمين أساسيين، هما المناران الأساسيان لحدود التزكية، ثم بمقدار تصورك لما في كل مَعْلَم منها، تنكشف لك تفاصيل وزوايا كل مَعْلَم من هذه المعالم. وهذان المعلمان هما:

المَعْلَم الأول: مَعْلَم التخلية والتطهير والتنظيف والإزالة والترك.

المَعْلَم الثاني: مَعْلَم التحلية والزيادة والنماء والإضافة.

فلا تُتصور التزكية بأحدهما دون الآخر، ولا تتم التزكية إلا بتصور المَعْلَمين وضمهما إلى بعضهما؛ مَعْلَم فيه تخلية وتصفية وإزالة وتطهير؛ ومَعْلَم فيه تحلية وإضافة ونماء وازدياد.

المعلم الأول: معلم التخلية والتصفية:

نقول التخلية والتصفية، لكن تصفية ماذا من ماذا؟ تطهير ماذا من ماذا؟ تنقية ماذا من ماذا؟ إبعاد ماذا عن ماذا؟ فما هي المعالم التفصيلية لهذا المعلم؟

هناك معالم تفصيلية داخل هذا المعلم الكبير، ويمكن إجمالها في ثلاثة وهي:

أولا: مَعْلَم مخالفة الهوى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾؛ أي أن هناك هوى وهناك نفس تتمنى الهوى، فالحيلولة بين النفس والهوى هي التزكية في شق التصفية والتخلية، جاء في الحديث عند البخاري: «والنفس تمنى وتشتهي».

لدينا إذا هوى، ولدينا نفس، ولدينا رغبة وانطلاق، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ تجاه هذا الهوى، فالمنع والكبت والإبعاد ووضع الحواجز والحجب بين النفس وبين الهوى؛ لمن أهم ما يدخل في التزكية، فالتزكية إذا أزلت منها مكوّن مخالفة الهوى لم يعد هناك تزكية، لأن مخالفة

الهوىٰ معلم أساسي، لذلك الشاطبي رحمه الله لما ذكر الشريعة لخصها في مقصدين كخلاصة لمقاصد الشريعة وكمركزيات أساسية في مقاصد الشريعة، فقال ما معناه أن: "المقصد الأعظم أو الأكبر من وضع الشريعة هي إخراج المكلَّف من داعية هواه، حتىٰ يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد له اضطرارًا".

ومن خلال قول الشاطبي: "إخراج المكلف من داعية هواه"، يُعلَم خطأ من يريد أن يصور الشريعة علىٰ أنها موافقة للهوىٰ من باب التسهيل وأن الإسلام يحقق لك ما تتمنىٰ! ولذلك نجد اليوم مثلا بعض الأطروحات في قضية الشذوذ تقول إن هؤلاء الشواذ لا ذنب لهم لأن لديهم بعض الجينات والميول لتلك الأفعال، فكيف تُحرم الشريعة هذا الأمر؟ لكن نقول لهم بغض النظر هل هذه القضية ثابتة علميًا أم ليست بثابتة، مع الافتراض جدلا أنها ثابتة، فالشريعة تمنع كثيرًا من الأمور التي فيها ميولات نفسية؛ لأن الفلسفة الكبرىٰ في قضية الشرعية **مخالفة الهوى!** لذلك من الخطأ أن يكون جوابك عن هذه الشبهة أنها لم تثبت علميا، فماذا لو ثبتت إذا؟

ثانيا: مَعْلَم تنقية القلب من أمراض القلوب:

أو الحيلولة بين القلب وبين أن تتمكن منه أمراضه، ومرض القلب ذُكر كثيرًا في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾، ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾، ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾...

فالقرآن يثبت أن للقلوب أمراضًا، بل القرآن يجعل بعض الناس وكأنهم لا قلوب لهم أصلًا ولا أسماع لهم ولا أبصار لهم إذا كانت لا تؤدي إلا الوظائف الحيوية الجسمانية التي هي وظيفة الإبصار، ووظيفة ضخ الدم، ووظيفة السماع... لذلك الله ﷻ عندما ذكر المواعظ في سورة ق قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

سؤال: من الذي ليس له قلب ممن هو مقصود في الآية؟

الجواب: هو الذي لديه مرض في قلبه أو ليس لديه قلب يستمع ويجيب.

فالقرآن يأتي ليبين لك أن هناك وظائف في الاستجابة لبعض الأعضاء، إذا فقدت هذه الوظيفة فيمكن أن يعبر عن هذا الإنسان أنه لا يمتلك أصلًا لهذه الأداة؛ لذلك الله ﷻ يقول: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

والأمراض التي يمكن أن تدخل ضمن هذا المعنى كعناوين عامة دون تفاصيل يمكن عنونتها بعنوانين أساسيين:

1) **أمراض قلبية تحت عنوان الشهوات**: وهذه يدخل فيها شهوات الدنيا وفتنها، وهنا تأتي ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، وتأتي أيضًا في نفس السورة في سورة الأحزاب بعد آية الحجاب ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وسياق الآيات أصلًا في الإيذاء والنساء وما إلى ذلك.

ويمكن أن يأتي جزء متعلق بالشهوات من جهة حب الدنيا حين يصل إلى حد المرض؛ لذلك تجد أنه أحيانًا تأتي العقوبات في مثل هذا السياق عقوبات قلبية، قال الله ﷻ: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وفي نفس الصفحة آخر آية:

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقبلها بقليل ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

2) **أمراض قلبية تحت عنوان الشبهات**: كالشك، النفاق، تقلّب القلب، عدم استقراره على اليقين، والتعلق بغير الله... ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾، ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ هذه الآيات جاءت في سياق الشك والاضطراب والنفاق.

إذا فالقرآن يثبت أن للقلوب أمراضًا، وأن هذه الأمراض تحول بين الإنسان وبين الحقائق وبين العمل، وتدفع للشك والتشكيك في الحقائق، ولأجل ذلك فكثير من أصحاب الشبهات اليوم إذا أردت أن تجلس معه لتحُلّ له أو تُزيل عنه الإشكالات المعرفية التي لديه فلن يستجيب! ولا تظنوا أنه إذا زال الإشكال المعرفي أو تم النقاش بطريقة أريحية و بأسلوب عقلاني ومنطقي أنه سينتهي بأشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وتزول الردة، لا، فإذا كان مريضا قلبيا فلن يؤمن، وليس من الضروري أن يبصر الحقيقة تمامًا ويخالفها، بل قد يرغب في ألا يبصرها! ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، ونوح عليه السلام يقول: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

القرآن هو أعظم مصدر لفهم الانسان، فهو يصور النفس البشرية والصراعات التي تدور فيها، وكيف تتعامل مع الحقائق، وكيف تفرّ منها، وكيف تبرر لنفسها وكيف تهرب؛ لذلك شفقة كبيرة على من يظن أنه بدراسة علم النفس والدراسة الإنسانية الموجودة اليوم أنه سيفهم النفس البشرية فهما كاملا، نعم هي دراسة لا تخلوا من فوائد مفيدة تزيد الإنسان معرفة

خاصة في قضية الأمراض، لكن في فهم النفس البشرية ومحركاتها وإراداتها ودوافعها؛ لا يمكن أبدًا أن تفهمها بغير سياق الوحي.

ثالثا: مَعْلَم التخلص من المثبطات وما يؤخر الإنسان عن العمل:

قد تدخل بعض صوره في الهوى، وقد تدخل بعض صوره في أمراض القلوب، وقد تدخل بعض صوره في المباحات من حيث الأصل (وإن كان بعضها يدخل في قضية المحرم الواضح)، لذلك علماء السلوك يعبرون عن هذا بالفضول، يقولون: فضول الطعام، فضول الكلام، وفضول النوم... فأصل النوم إذا نمت في اليوم عشر ساعات هذا الفعل في أساسه في دائرة المباحات، لكن عندما تنظر بالمنظار القلبي والمنظار التزكوي، فلا يستقيم تصور تزكية النفس وتعويدها على المعالي والجد والاجتهاد في الطاعة مع هذا المقدار من النوم الذي هو مرافق للكسل. وتجد عندما ترجع إلى السنة أن من دعاء النبي ﷺ في الصباح وفي المساء: «أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر»، والاستعاذة من الكسل كذلك في الصلاة، وكان النبي ﷺ أيضا ينهى أصحابه عن كثرة الترفه، جاء في السنن: «كان رسول الله ﷺ يَنْهَانَا عن كثير من الإرفاه».

المَعْلَم الثاني: مَعْلَم التحلية والزيادة والنماء:

هناك معلمان تفصيليان داخل هذا المعلم أيضا، وهما: أعمال القلوب، وأعمال الجوارح.

فلابد أن تكون مستحضرًا في سياق التزكية والبناء أن المطلوب منك أن تشتغل على هاتين الدائرتين وعلى هذين المعْلَمين في التحلية والنماء، مَعْلَم فيه زيادة في أعمال القلوب، ومَعْلَم فيه زيادة في أعمال الجوارح، والعلاقة بينهما علاقة تكامل، وفي بعض صورها علاقة تلازم، بمعنى أن أعمال القلب إذا صدقت وصحت تستلزم أعمال الجوارح ولابد، سواء في العبادات

أو حتى في غير العبادات، فأي قلب يمتلئ بمعنى ما وتكون هناك إرادة ولا يوجد مانع؛ فالمفترض أن الأثر يظهر عمليًا.

أولا: أعمال القلوب:

يمكن أن نقسم أعمال القلوب إلى قسمين؛ عبادة واستعانة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فعلى رأس الأعمال القلبية التي تدخل تحت إياك نعبد: الإخلاص، لا نعبد إلا أنت، لا نقصد إلا وجهك، لا نبتغي بعملنا إلا أنت، إياك نعبد وحدك يا رب، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هذا هو الإخلاص.

وتحت إياك نعبد أيضا: الإنابة، والمحبة، الخشية، والرجاء... كل هذه أعمال قلبية تدخل تحت إياك نعبد.

وتحت إياك نستعين أعمال قلبية، منها: التوكل، والتفويض، والاعتصام...

لذلك لا تتعجب من العلماء الذين قالوا إن مدار الدين على ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ف: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لها أثر على تنقية أمراض القلوب، لذلك نجد من العبارات الجميلة المركزية في هذا الباب ما قاله ابن تيمية رحمه الله في الآية: "فأما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فتطرد الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تطرد العجب والكبر".

ثانيا: أعمال الجوارح:

أعمال الجوارح إذا أردنا أن نقسمها يمكن أن نقول أنها فعل وترك.

أما الترك فنقصد به أفعالا معينة، كغض البصر مثلا، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، هذا ترك أم فعل؟ هو فعلُ ترك، لأن الترك يوصف بأنه فعل ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تركوا فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فسمي تركهم فعلا.

ترك آخر منصوص عليه: ﴿فاجتنبوه﴾، ﴿ويحفظوا فروجهم﴾، ﴿اجتنبوا كثيرا من الظن﴾، ﴿ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا﴾... ومن النصوص ما يثبت العلاقة بين تركٍ ما وبين التزكية؛ فتكون أدل على المقصود، منها: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.

وأما الفعل فهو واضح، كفعل العبادات وكل أعمال الجوارح، وعلى رأس أعمال الجوارح من ناحية الفعل؛ الصلاة، فالصلاة هي سيّد أعمال الجوارح أو أعمال البدن، ولها علاقة وطيدة بالتزكية ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

• تأثير التحلية على التخلية والعكس:

هناك علاقة بين التحلية والتخلية، وأحيانا تؤثران في بعضهما، مثال ذلك:

أولا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، هنا لدينا الإخلاص من جهة التحلية، ولدينا ترك الرياء من جهة التخلية، فصار هناك اشتراك بين التحلية والتخلية، بحيث أن ما تقدمه من عبادات وما تعمله إنما يكون متقبَلا حال كونه مُخَلَّصا من الشرك وما يشوبه.

ثانيا: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، إذا قلنا إن السيئات لها الأثر السيء على القلب، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وبالتالي هنا التحلية أصبح لها تأثير على التخلية.

ثالثا: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، فالصلاة زيادة ونماء، ومن آثارها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر التي هي قواطع وعوائق.

المحور الثاني: وسائل التزكية:

أود في البداية أن أُنبه إلى قضية مهمة جدًا ألا وهي أن تحقق التزكية عند الإنسان لا يكون عبر معادلات وإجراءات إذا فعلها الإنسان فستحصل التزكية قطعًا، بل ما نقوم به ما هو إلا بذلٌ للأسباب، وبعد ذلك تحقق التزكية في الإنسان هو رزق وهبة من الله ﷻ، فكما أنك تطلب الرزق من الله باتخاذك الأسباب في أي قضية من القضايا الدنيوية؛ فكذلك

تُطلب الأرزاق الدينية من الله ﷻ ببذل أسبابها، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

سنذكر في هذا الباب بعض الوسائل المتعلقة بالتحلية والتخلية، لكن قبل ذلك سنذكر بعض الوسائل التي تعتبر شاملة للاثنين معا أو مقدمة أو شرطا لهما.

• وسائل مقدمة وشاملة للتزكية:

فمن الوسائل التزكوية العامة نجد:

أولا: دوام استحضار حقائق الإسلام الكبرى:

وذلك نحو: حقيقة أن الله هو الإله الحق، وأن الإنسان سيغادر الدنيا، وأن الآخرة حق، والبعث حق، وأن هناك جنّة ونار... وهذه الحقائق هي حقائق لا يصح إسلام المرء إلا بها.

ومن الأمور العظيمة في الإسلام أنه على عظمته وسموه وعلوه وشرفه؛ هو بسيط وسهل، والحقائق والطرق التي تُوصل الإنسان إلى رضا الله ﷻ؛ هي طرق يسيرة وليست معقدة، لكن الفرق بين الناس إنما يكون في درجة الاستحضار، وفي مقدار اليقين، وفي دوام التصديق، ولذلك تجد أن بعض من يدخل في الإسلام من أول أيامه إذا كان استحضاره لهذه الحقائق الكبرى عاليًا؛ تجده يصنع أمورًا لا يفعلها إلا من بلغ درجات عالية في التزكية! ومن أبرز الأمثلة على ذلك؛ سحرة فرعون الذين آمنوا، ففي نفس المقام والموقف الذي آمنوا فيه؛ هُدِّدوا بقطع الأيدي والأرجل والصَّلب، وقالوا كلامًا يظن من سمعه أن هؤلاء قد أفنوا أعمارهم في قيام الليل والسجود بين يدي الله ﷻ! قالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾؛ درجات عالية من التزكية الإيمانية، ولم يكن ذلك مسبوقًا بمقامات طويلة أو بزمن كبير في التزكية، وإنما القضية في مقدار انكشاف الحقائق الكبرى للقلب، ودرجة تصديقه لهذه الحقائق

واستحضاره لها... لذلك جاء في حديث جبريل أن الإحسان هو: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ». فأنت مؤمن أن الله يراك، لكن القضية والفكرة في الاستحضار، وحين نقول الاستحضار؛ فلا شك أننا لا نتكلم عن تمارين ذهنية يقوم بها الإنسان مع شيء من التركيز ودرجة معينة من الصفاء حتى يستطيع الاستحضار، هي ليست إجراءً، بل هي درجة من اليقين والتصديق، فلذلك أبو بكر رضي الله عنه هو أشرف هذه الأمة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد نال هذه المنزلة بتصديقه للنبي ﷺ سيما في قصة الإسراء والمعراج، فالمؤمنون كلهم كانوا مصدقين بالنبي ﷺ، لكن أبا بكر كانت درجته أعلى ومنزلته أسمى.

هذه إذا مقدمة أساسية وشرط ضروري لأي عملية تزكويّة ضمن الإطار الإسلامي، ولا تصلح أي وسيلة، ولا يكون لها أي قيمة ولا شأن إذا ما كانت هذه الحقيقة الأولى والأساسية حاضرة ومستَحضرة.

كثمرة عملية لمقدمة وسائل التزكية أقول: إياك أن تستهين في بحثك، أو في تعبدك، أو في ذكرك، أو في صلاتك... بالمعلومات أو بالتعبُّدات أو بالأذكار المتعلقة بالأصول الكبرى قائلًا في نفسك أن هذه معروفة! فالسر كل السر في المعروفة، والشأن كل الشأن في المعروفة، فإذا ما شعرت أن دائرة من دوائر شؤم الذنب التفَتّ عليك وصارت محيطة بك تكاد تغلق عليك الأفق؛ فاكسرها! اكسر ذلك القيد والطوق ب: **لا إله إلا الله**، قلها من صميم القلب وخالِصِه، بعلم ويقين وصدق، فلو كانت السماوات والأرض حلقة لقصمتهن لا إله إلا الله، لا تبحث في أوراد تفصيلية خاصة وصعبة ومعقدة قال بها بعض الأولياء!

ثانيا: العلم بالله جل جلاله:

الوسيلة التزكويّة الثانية هي العلم بالله سبحانه وتعالى، ولا شك أن العلم بالله أشرف العلوم، وهذه الجملة ربما سمعناها كثيرًا، ولكن لا نستطيع أن نقتنع بها حق اليقين إلا إذا عشناها ولمسنا آثارها في حياتنا.

العلم بالله سبحانه وتعالى والحديث عنه الموصل إلى العلم به سبحانه هو الذي استغرق من كتاب الله المساحة العظمى، وإذا تأملت الآيات والسور التي جاء تفضيلها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ستجد أنها متعلقة بالله سبحانه وتعالى، فأعظم آية هي آية الكرسي، وآية الكرسي خالصة في الحديث عن الله، وأعظم سورة هي الفاتحة، وتتحدث عن الله سبحانه وتعالى وعن إخلاص العبودية له، والسورة التي تعدل ثلث القرآن هي الإخلاص، وهي أيضا تتحدث عن الله تعالى.

حسنًا، ما العلاقة بين العلم بالله سبحانه وتعالى وبين التزكية؟

تقدم أن الوسيلة الأولى هي دوام استحضار الحقائق الكبرى للإسلام، واستحضار هذه الحقائق إذا كان تفصيليا فهو أعلى وأشرف وأعظم من الاستحضار الإجمالي، وأعظم استحضار تفصيلي هو المتعلق بالله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته، وفرق كبير بين أن يكون استحضارك المعنى المتعلق بالله هو معنى الوجود والشاهديّة فقط، وبين أن يكون المعنى تفصيليًا ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾، فكل اسم من هذه الأسماء حين تلفظه بحروفه فإنك تنقش في قلبك معنى العلم بدلالات وحقائق هذه الأسماء؛ هذه هي التزكية، وأنك تقرأ كلام مَن هذه صفته، وتقف بين يدي مَن هذه صفته، وتطلب مَن هذه صفته؛ هذا من أعظم الوسائل التي تقود الإنسان إلى التزكية. فالله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه شيئًا من آثار العلم بالله وأثره في التزكية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ودائمًا ما يلفت انتباهي قول مريم عليها السلام حين جاءها جبريل فخافت؛ ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أرادت أن تستجير فاستعملت هذا الأسلوب! وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، هذا فيه معنى التذكُّر، تذكُّر الله ﷻ، بخلاف ما جاء في سورة البقرة في فقدان معنى العلم بالله والخوف منه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

ثالثا: إدراك مركزية العمل في الإسلام:

هذه الوسيلة هي مفهوم وعمل، أي مفهوم أن يكون العمل لديك هو الأساس وهو الغاية وهو المركز، وأن تؤمن أن الإسلام دين عمليٌّ وليس دينًا نظريًّا.

فالنبي ﷺ زكّى الصحابة بتربيتهم على أن العمل هو الأساس والمبدأ، وأن هذا الدين من أول يوم تدخل فيه هو دين العمل الصالح، وهذه التربية النبوية للصحابة هي التزكية، ولذلك لما قال النبي ﷺ: «إنَّ الله فرض عليكم الحجَّ فحجُّوا»، قال قائل: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «لَوْ قُلتُ نعمْ لَوَجَبَتْ». ثمّ قال النبي ﷺ في هذا الحديث أو فيما اتصل به: «إنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ علَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عن شيءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ». هذا النص معياري في تربية النبي ﷺ لأصحابه، وأن المبتدأ عملٌ، والوسط عملٌ، والنهاية عملٌ.

وأنت في سياق بحثك عن وسائل التزكية؛ لا تستغرق في القضايا النظرية، لأن التزكية عمل، وهذا العمل منه ما هو في التحلية، ومنه ما هو في التخلية، ولكن في الأخير المبدأ والمركز هو العمل.

• وسائل تزكوية متعلقة بالتخلية والتصفية والتطهير:

أولا: تربية النفس على مخالفة الهوى:

الوسيلة الأولى هي تربية النفس على مخالفة الهوى، حتى ولو لم يكن الهوى في سياق التربية ذاك محرمًا، لم أقل المخالفة فقط! وإنما أقول تربية النفس على مخالفة الهوى، حتى إذا جاء ذاك الهوى المحرم تكون نفسك قد تعودت منك على قول «**لا**»، أما جعل النفس مُنسابة بلا حدود وبلا قيود وبلا ضوابط؛ فهذا يجعلها من أصعب النفوس التي يمكن أن تسعى إلى التزكية، لذلك يعجب المرء من تكرار النبي ﷺ الوصية لذلك الرجل حين قال له: «أَوْصِنِي»، قالَ: «لا تَغْضَبْ»! تخيل أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ يقول: «يا رسول الله أوصني»، يريد وصية خاصة من النبي ﷺ له، والنبي ﷺ يقول له: «لا تَغْضَبْ»، وَرَدَّدَ مِرَارًا.

لذلك قال العلماء أن «لا تَغْضَبْ» متوجه إلى معنيين: **أولها**: اجتنب الأسباب التي تؤدي بك إلى الغضب. **وثانيها**: اجتنب الآثار السيئة التي يمكن أن تنتج عن الغضب إذا غضبت، فاجتنب الغضب واجتنب أسبابه، وحتى لو وقعت في بعض أسبابه فبدأت نفسك في فورة الغضب فحاول أن تقاوم، فهذا يدخل في باب قول «**لا**» للنفس؛ لأن الغضب شعور طبيعي، فـ: «لا تَغْضَبْ» فيه تربية على قول «**لا**»، وعلى كفّ النفس عن مقتضيات الشعور الذي يمكن أن يأتيها. ولذلك يأتي النبي ﷺ ويقول لأصحابه: «ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»؛ لأن الشدة المادية والحسية أمرها سهل، وقد يُخلق الإنسان قويًّا، لكن قد يكون وهو بهذه الشدة الظاهرة المادية الملموسة خفيف العقل سفيه الرأي كما قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

إذن فالوسيلة الأولىٰ (تربية النفس علىٰ مخالفة الهوىٰ) وسيلة عملية حقيقية ومؤثرة وفاعلة في تعويد النفس علىٰ الابتعاد عمّا يخالف التزكية، فحاول أن تربي نفسك علىٰ قول «**لا**» حتىٰ في الأمور المباحة، وهذا من باب تعليم النفس أنه ليس كل شيء تريده وتشتهيه تحصل عليه، وهذا المعنىٰ جلي في الصيام.

ثانيا: دوام التوبة ولزوم الاستغفار:

من أعظم عوائق وموانع الرزق الإلهي (المتمثل في الهداية الخاصة، وفي جنة الدنيا، وفي إدراك الحقائق العالية، وفي أن تكون علىٰ المقامات العالية في التعبد...) تراكم الذنوب والمعاصي؛ ولأجل ذلك فإن من أعظم الوسائل التي تعين علىٰ التزكية هي تخليص النفس من الآصار والأثقال وما ينقض الظهر من الأوزار حتىٰ تكون النفس صالحة وقابلة لنزول الرزق الإلهي عليها بالهداية الخاصة والولاية وما إلىٰ ذلك، وللتخلص من هذه الموانع؛ فالوسيلة الأساسية هي التوبة والاستغفار.

- **سؤال: لماذا نتوب؟**

هناك من يستغفر الله ﷻ لطلب الرزق، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وهناك من يستغفر الله ﷻ لطلب الولد ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾، وهناك من يستغفر الله ﷻ مستحضرًا ذنبًا معيّنًا، فيستغفر الله ويتوب إليه من ذلك الذنب، وهناك مقام أعلىٰ من ذلك، وهو حينما يستحضر المرء معنىٰ النقص البشري اللازم والدائم ودوام التقصير، ومعنىٰ الكمال الإلهي والعظمة الموجبة لمزيد من الحق الذي كان ينبغي أن يكون عليه؛ فيستغفر الله، وهذا مقام أعلىٰ وأشرف؛ ولذلك لا تتعجب أن يكون أول ذكر تقوله بعد الصلاة: أستغفر الله، مع أنه إذا فكرت فيه كمناسبة أساسية قد تتوهم أن الأولىٰ بعد الصلاة أن تقول الحمد لله لأن وفّقك لهذه العبادة،

ولكن الأمر ليس كذلك، والعباد والعارفون أيضا تراهم يقومون الليل ويسجدون ثم يختمون قيامهم وابتهالهم ومناجاتهم بالاستغفار ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

يا صاح، مهما عملت فأنت مقصّر في عبادتك، وإذا نظرت إلى مقام ربك وعظمته وما يستحقه وما ينبغي وما يجب عليك هو شيء لم تبلغه ولن تبلغه؛ وفوق ذلك تجرأت وعصيت! تجرأت واتبعت هواك الذي نهاك عن اتباعه! فاستغفر الله استغفارًا من صميم القلب، استغفارا فيه معنى الخشوع والخضوع والاعتراف بالتقصير والضعف والفقر والاحتياج، فهذا الاستغفار هو من أعظم وسائل التزكية، فالاستغفار هو الذي يحرق الذنوب حرقا ويبعدها عن الإنسان، فيكون قلبه مؤهلا وصافيا صفاءً يجعل الرزق من الله ﷻ يأتي ويؤثر في ذلك القلب ويملؤه.

ثالثا: المجاهدة:

ما الفرق بين مخالفة الهوى وبين المجاهدة؟

المجاهدة تأتي بعد التربية، وتكون في التخلية والتحلية عكس الوسيلة الأولى التي تكون في التخلية فقط، فلا بد من مجاهدة النفس في التخلي عن مشكلاتها، ولا بد من مجاهدة النفس لتحقيق العبادات والزيادة والنماء.

هذه المجاهدة يجب أن نعيشها، فلا تنتظر زكاةً حقيقية للنفس وأنت لم تجرب بعد مجاهدة النفس! ليست المجاهدة أن تتخلى عن ذنب يأسرك فقط، فهذه صورة دُنيا من صور المجاهدة، فالمجاهدة قد تستمر معك سنوات وسنوات في مقابل شيء معين، فالمجاهدة في مقامات الترقي هي مجاهدة مستمرة وعالية جدًا، لذلك قال سفيان: "جاهدتُ نفسي عَلىٰ قِيام الليل عِشرين سنة، ثم تلذذتُ به عشرين سنة". أو كما قال.

المجاهدة المستمرة هي من وسائل التزكية المفيدة والمثمرة والعملية التي تلمس أثرها، والعجيب أن أثر المجاهدة أحيانا قد لا تتوقعه، فأنت قد تجاهد نفسك للتخلص من ذنب أو سلبية ما

كمرض من أمراض الشهوات مثلا، ويكون هذا هدفك، فتُفاجأ بعد المجاهدة أن الله ﷻ يورثك ما لم يكن يخطر ببالك مما يعاكس أو يخالف هذا الذنب الذي أنت سعيت وجاهدت لتتخلص منه فقط! فتكتشف أن المجاهدة تُنتج ليس فقط التخلص مما تريد التخلص منه، وإنما هي وسيلة أساسية لزيادة الخير الذي لم يكن ليخطر ببالك، ومصدَاق هذا أو شاهده أو مؤيده قول الله ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

رابعا: التوكل على الله ﷻ في ترك المعاصي:

التوكل من المفترض أن يأتي في التحلية، لكن أردت أن أُفرد التوكل هنا في وسائل التزكية المتعلقة بالتخلية لفتا للانتباه إلى شيء مهم؛ وهو درجات التوكل.

- **درجات التوكل:**

1) التوكل على الله ﷻ في جلب منفعة ما (طلب الرزق)، وهذه عبادة عظيمة جدًا.

2) التوكل على الله ﷻ في الهداية، والتخلص من الذنوب، والتوكل على الله ﷻ في تحقيق عبوديته، وهذا مقام شريف من مقامات التوكل.

3) التوكل على الله ﷻ في نصرة الدين والقيام بطريق الأنبياء ونفع الخلق...

يا صاح، ذلك الذنب الذي أرّقك ولم تستطع التخلص منه وبذلت الأسباب، وتبذل ولا زلت؛ اجعل من ضمن الأسباب ومن أساسها التوكل على الله ﷻ في التخلص منه، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ نستعين بك على عبادتك أيضًا. والتوكل هو استعانة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تساوي ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

فهذه إذا وسائل أربعة وغيرها كثير، لكن هذا المقام لا يحتمل أكثر من هذا.

• وسائل تزكوية متعلقة بالتحلية والزيادة والنماء:

أولا: العناية التامة بأعمال القلوب اهتمامًا وعملا:

اهتمامًا: أي أن تكون في قاموس أولوياتك، **وعملا**: أن تراعيها في التعبد أكثر مما تراعي التعبدات الظاهرة.

إن حقيقة التزكية إنما تكون في القلب؛ ولذلك ثبت في البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «التَّقْوَىٰ ها هُنا» ويُشِيرُ ﷺ إلى صَدْرِهِ. وقال ﷺ أيضا كما في البخاري: «ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألَا وهي القَلْبُ»، وفي الصحيح أيضًا: «إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ».

وأعمال القلوب ما لم تكن في قاموس أولوياتك اهتمامًا وعملا؛ فلا تنتظر التزكية، لأن أعمال القلوب هي اللُّب، وهي المنطلق والمنتهى، ولذلك من أراد القفزات الهائلة والعالية في مقامات التعبد؛ فلتكن محور التعبدات لديه القلب، ثم البدن بعد ذلك يأتي تبعًا، وما كل شيء في الإسلام من عبادات ظاهرة إلا هي تبع للقلب وما يقع فيه وما يقرُّ فيه.

ثانيا: الدعاء:

جاء في صحيح الإمام مسلم دعاء جميل ولطيف في قضية التزكية وإن كان مختصرا، قال النبي ﷺ في هذا الدعاء: «اللهُم آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أنت خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أنت وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».

دعاء واضح وصريح في تحقيق قضية التزكية، وأول شيء فيه أن التزكية رزق «اللهُم آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أنت خَيْرُ مَن زَكَّاهَا»، ثم فيه استحضار حقائق الإسلام التي تحدثنا عنها سابقا، «أنت وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».

وحقيقة التزكية التي تحصل إنما هي من الله وحده، فهو خير من يزكّي النفس، أليس هو خالقها؟ أليس هو الذي يعلم أدواءها وما يتخللها وما يعتريها؟ فهو ﷻ وليها ومولاها.

ولذلك فليحرص كل منا على ملازمة هذا الدعاء مع استحضار أنه وسيلة مهمة من وسائل التزكية.

ثالثا: الصلاة:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وهذا صريح في التزكية. والصلاة المذكورة في الآية لها ثمرتان:

1) ثمرة النهي عن الفحشاء والمنكر.

2) ثمرة ذكر الله ﷻ.

وثمرة ذكر الله أكبر من ثمرة النهي عن الفحشاء والمنكر؛ لأنه الصلاة أصلا مُقامة لذكر الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

لكن السؤال الذي يستحق فعلًا البحث والتأمل هو: **لماذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**؟ فالصلاة ليست عمل قلب في الأساس، بل هي عمل بدني، نعم يدخل القلب فيها، لكن التصنيف الأساسي أنها عمل بدني. فهذا السؤال يستحق البحث الطويل، لكن مَعْقِد الجواب كله في فهم حقيقة الصلاة، وما مقدار التعبُّدات الموجودة في الصلاة.

رابعا: التفكر:

نحن اليوم نعيش في زمن محاربة أو مزاحمة التفكر للأسف!

المرء قد يغفل ويألف المعتاد، وهذا ما يؤدي إلى عدم التدبر والتفكر، فإذا كان من المعتاد أن ترى الشمس والقمر؛ فلن تكون الآية عندك تحتاج استحضارا حتى تستحضر، لذلك الله

ﷻ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

إن التفكر في آيات الله ﷻ الكونية لمن أعظم الأمور التي تزيد اليقين والإيمان، وإذا كنا قد قلنا سابقا أن درجة اليقين هي من أعظم القضايا في التزكية والوسائل؛ فإننا نقول إن من أعظم وسائل زيادة اليقين واستحضار الحقائق الكبرى: **التفكر والتدبر**، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وسيلة من الوسائل: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، نتيجة التفكر: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

خامسا: كثرة ذكر الله ﷻ:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

إن للذكر تأثيرا عظيما على النفس والقلب غير تأثير الحسنات الكثيرة التي تُدوَّن للمرء، أنا لا أتكلم عن الذكر من جهة كثرة الأجر، وإنما أتحدث عن الذكر من جهة أثره على النفس، أو في الاستفادة من المدخلات التي تدخل عليك من العِبَر والآيات.

الله ﷻ عندما قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ قال قبلها: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وكأن التفكّر دون قلب حاضر ولسان ذاكر يُحدِث أثرًا فيه ضعف.

إذا كان التفكر وسيلة لزيادة الإيمان؛ فهي ليست لأي أحد، وإنما هي لأولي الألباب الذين يذكرون الله ﷻ قبل أن يتفكروا. لذلك سبحان الله أشياء موجودة مخلوقة يمكن التفاعل معها بطريقة تؤدي إلى الإيمان، كما يمكن التفاعل معها بطريقة عكسية تؤدي إلى الكفر كما في المنطق الإلحادي المعاصر، صاروا ينظرون إلى السماء والكون ويرون أنه عالم فسيح لا معنى له! لذلك الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ ولكن لمن؟ ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ من هم؟ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وفي هذا المعنى أيضا يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فرسول الله ﷺ كان في مكان واحد والجميع سمع خطابه، لكن لم يكن لجميعهم أسوة حسنة، بل كان للبعض عدوًا (في نظرهم هم)، والمنافقون أيضا في وقت النبي ﷺ كانوا يستمعون لنفس الآيات ويحضرون نفس المجالس، لكن لم يفلحوا، لذلك لا تتعجب أن يكون وصف المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والذين اتخذوا الحبيب ﷺ أسوة كانوا يذكرون الله كثيرا عكس المنافقين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

إذن فإن كثرة الذكر وسيلة من أعظم وسائل التزكية أيضا، فهي تصلح القلب، وتطمئنه، وتجعله قابلا للاستفادة من العِبر والآيات التي تزيد الإيمان واليقين، ويُهدىٰ بها الناس إلى الحق المبين.

عوائق التزكية

تحدثنا عن الأهمية والماهية والوسائل، وبقي لنا أن نقف وقفة مع العوائق والحواجز والحُجُب والمثبِّطات التي تُعيق طالب التَّزكية عن الوصول إلى التَّزكية، وبذلك تكمُل بإذن الله عملية التَّزكية.

وبهذا المجموع (المركزية، والأهمية، والمعالم، والوسائل، والعوائق)، أرجو أن يكون موضوع التَّزكية قد قُدِّم بشمولية للإعانة بعد ذلك بإذن الله تعالى ﷻ على الوصول إلى المرحلة التطبيقية العملية؛ لأننا هنا لسنا في مقام يُراد منه وله أن يكون تنظيريًّا مُجرَّدًا، فليست الثَّمرة أن نخرج ببحث ورقي أو معرفي إلكتروني في أنَّ هذه هي التَّزكية وهذه هي خارطتها ومعالمها، بل الأساس تحقيق القضية العملية.

المحور الأول: عوائق التَّزكية مِن حيث مصادرها:

نقصد المصادر أو الأسباب التي تؤدي إلى نشوء العوائق، وهذه المصادر هي:

1) النَّفس.

2) الشَّيطان.

3) البيئة المحيطة (أصدقاء، مجتمع، ثقافة سائدة، أفكار مُهَيْمِنة، إلى آخره...).

4) الأعداء.

العائق الأول: النفس:

النَّفس يمكن أن تكون أمَّارةً بالسوء، أو داعيةً إلى الخير، أو أن تكون مُطْمئِنة، أو أن تكون لوَّامة، أو نحو ذلك مِن النَّواحي الإيمانية الغيبية؛ فيسير الإنسان وهو يحمل نفسًا بين جنبيه، هذه النَّفس مُتَّصلة اتصالا وثيقًا بعالم الغيب، وبالخير والشَّر، وكثير مِن البشر لا يُدرك هذا المعنى أصلا وليس مطروحًا في قاموسه، وإنما يتعامل مع هذه النَّفس بما يمكن أن يقاس

أو لا يقاس مِن الأمراض النَّفسية وما يتعلق بها. لكن الشريعة الإسلامية تقول لك إن هذه النَّفس عالم فسيح، ومع هذه النَّفس أنت في رحلة مكابدة ومجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ جاهدوا ماذا؟ الذين جاهدوا فينا الشياطين، الذين جاهدوا فينا المنافقين، الذين جاهدوا فينا الأعداء والكفار...

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، فهذه الآية تثبت أن للنَّفس أمرا ونهيا، وتثبت أيضا أن المرء يمكن له أن يتحكم في هذا الأمر والنهي، وتثبت كذلك أن مِن أهم وسائل هذا التَّحكم في النَّفس: خوف مقام الله ﷻ.

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح في البخاري، قال: «والنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشْتَهِي»، فهذه النَّفس التي تَمَنَّى وتشتهي لمِن أعظم صور التَّكليف الإلهي للبشر، لأنه تعالىٰ جعل نفوسهم علىٰ هذه الأماني والشَّهوات، وجعل وسيلة دخول الجنة هي القدرة علىٰ منع هذه النَّفس من أن تأمر بخلاف ما أمر الله ﷻ، أو أن تنهىٰ عمَّا أمر الله ﷻ به، لذلك يُقسم الله بـ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ ثم جاء جواب القسم: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ وتزكيتها: بالقدرة علىٰ نهيها عن أن تسير وفق هواها.

إذا أنت يا طالب التَّزكية، يا طالب النَّجاة، في سيرك هذا يجب أن تستحضر أنَّ واحدة مِن المصادر التي يمكن أن تُوَلِّد العوائق التي تحول بينك وبين أن تصل إلىٰ التَّزكية هي: النَّفس، فإذا غَفِلت عن هذا، فقد غَفِلت عن مصدر عظيم مِن مصادر العوائق، فتكون مِن جملة الغافلين الذين تُوَلَّد لديهم العوائق، وهم لا يدرون!

العائق الثاني: الشيطان:

نحن نعيش في دار ابتلاء حقيقية، وبقدر غفلة المرء عن معاني الابتلاء بقدر ما يعيش مرتاحًا في هذه الحياة، لكنها راحة زائفة، راحة مُتوهَّمة. أما العاقل؛ فبقدر ما يدرك حقائق هذا الابتلاء الذي يعيش فيه؛ تزداد عنده قيمة معالِم هذه الحياة، ويدرك أن الأمر حق، وأن الأمر مكابدة ومجاهدة، وأن الحياة ليست حياة نعيم، بل الأمر جلل وعظيم.

إن القرآن الكريم وسنة الصادق الأمين ﷺ يُثبتان لنا أن علاقة الشَّيطان بالإنسان علاقة مؤثرة، علاقة واسعة ومُمْتدَّة ومُتَّصلة مِن بداية حياة الإنسان إلىٰ وفاته، وهي مِن جُملة ما نؤمن به مِن الغيب، وإنْ كُنَّا نلمس آثار وسوسة الشياطين وأذاهم حتىٰ في عالم الشَّهادة.

وحديث الرَّحمن عن الشِّيطان حديث مُفصَّل، والرحمن ﷻ بَيَّن لنا أولًا مركزية العداوة بين الإنسان والشَّيطان فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وحين يأتي أهل النَّار إلىٰ النَّار يوم القيامة يقول الله لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، وفي سورة الكهف: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

وذكر الرحمن أيضا أن من وسائل الشَّيطان في التأثير والإغواء: الوسوسة وطريق الخطوات: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾. وذكر أهل العلم خطوات الشيطان التي يتدرج فيها لإهلاك بني آدم، وممن ذكر ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله إذ يقول في بدائع الفوائد: "ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتىٰ ينال منه واحدا منها أو أكثر.

الشر الأول: **شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله**، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتىٰ يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستعان به علىٰ أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه،

فإن يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى المرتبة الثانية من الشر وهي: **البدعة**، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعوة إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضا نائبه وداعيا من دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان الجد ممن سبق له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال؛ نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر وهي: **الكبائر** على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها، ولاسيما إن كان عالما متبوعا، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة وهي: **الصغائر** التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها؛ كما قال النبي ﷺ. فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة وهي: **إشغاله بالمباحات** التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى المرتبة السادسة وهو **أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه**، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه. فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه؛ سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى".

إذن فالشَّيطان يتدرج بالإنسان بالخطوات، ونَفَس الشَّيطان طويل، ويرضى أحيانا بأقل النتائج حتى لا يخسر على الأقل، ويعرف المداخل التي على الإنسان، فإذا كان المنزع الذي يُمكن أن يدخل عليك منه هو منزع الغلو؛ فإنه يحُثّك ويزيدك تديُّنًا بطريقة ليست هي

الطريقة الصَّحيحة، فيؤزّك نحو الانحراف عن السَّوية مِن جهة الغلو. وإن عرف فيك التراخي والكسل والفتور أزّك أزًّا إلىٰ هذا التَّراخي وزاده فيك وهكذا...

والوساوس والخواطر علىٰ قسمين: القسم الأول: وسواس عَقَدي، والقسم الثاني: وسواس في الطَّهارة والنِّيَّة وما يتعلق بها. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فواحدة مِن غايات الشَّيطان إذا لم يستطع أن يأسِرَك في مُستنقع الشَّهوات والشبهات؛ إدخالك في مربعات التَّحزين. وحين تدخل هذه المربعات فلن تكون مُصلحًا، ولن تكون أملًا، ولن تستطيع أن تتجاوز مشكلة نفسك! لذلك يجب علىٰ الإنسان أن يستنير بالحلول الشَّرعية في هذه الأبواب، ويتعامل معها بطريقة المتشبِّث بالحل الذي يُسلِّم أن ما جاء به الوحي في مثل هذه القضايا هو حق وإن خالف طبيعة ما يُصَوَّر له مِن خلال هذا الأذىٰ.

ولكم أن تتخيلوا أن الصَّحابة الكرام كانوا يعانون أيضا من وسوسة الشيطان، ولاسيما الوساوس العَقديَّة، لكن وقت الصَّحابة كان الجواب النَّبوي بالنِّسبة لهم يدخل في خانة التَّفعيل المباشر، فالمشكلة لا تأخذ أكبر مِن حجمها، والغريب هو الجواب النَّبوي لهذه الوساوس، فمثلا يأتي الصَّحابة ليقولوا: «يا رسول الله إنَّا لنجد في أنفسنا ما أن يَخِرَّ أحدنا مِن السماء أَحبُّ إليه مِن أن يتحدث به»، يعني هناك وساوس تأتيهم عن الله ﷻ هي أقبح وأشد وأغلظ مِن أن يُتلفظ بها لرسول الله ﷺ، فيقول لهم النَّبي ﷺ: «وقدْ وجدْتُمُوهُ؟، قالوا: نعم، قال: ذاكَ صَرِيحُ الإيمانِ»!

وحين تكلَّم العلماء عن هذا الحديث قالوا أن طروء مثل هذه الوساوس عليهم وكراهيَّتهم لها ودفعهم لها هو صَرِيحُ الإيمانِ، وفي السُّنن أن الصَّحابة قالوا: «يا رسول الله إنَّا نجد في أنفسنا، ما أن يكون أحدنا حُمَمَةً، أحب إليه مِن أن يتحدث به، فقال النبي ﷺ: اللهُ أكبرُ، الحمدُ للهِ الذي ردَّ كيدَه إلىٰ الوسوسةِ».

وكان النبي ﷺ أيضا يُحذّر أصحابه من وساوس الشيطان، جاء في البخاري: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أحَدَكُمْ فيَقولُ: مَن خَلَقَ كَذَا؟ مَن خَلَقَ كَذَا؟ حتَّى يَقُولَ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ باللَّهِ ولْيَنْتَهِ».

وأجوبة النبي كما ذكرنا بالنسبة للصحابة تتحول مباشرة إلى تفعيل، لذلك لم يوجد لديهم كبير إشكال.

يا صاح كن حذرا من حيل الشيطان في إقعادك عن الانطلاق في أفاق العمل، وفي أفاق التزكية وفي أفاق الإصلاح، كن حذرا أن ينطلق بك في أفاق شَرَك الوساوس والأفكار، وإن أصابك شيء من هذا فيجب عليك أن تعلم أنك لست أول من يصاب، وأن الصحابة قبلك قد تعرضوا لمثل هذا، فإياك أن تستجيب، وإياك أن تسترسل، ثم إياك أن تجيب بنعم أو بلا إذا ما قال لك الشيطان أنك قد كفرت أو نافقت بمثل هذه الوساوس والأفكار.

إذن هذا مصدر آخر من مصادر توليد العوائق بينك وبين التزكية، والصور كثيرة جدًا في هذا العائق، لكن ركزنا على الوسوسة فقط منها لأننا في سياق الكلام عن المصلحين، فالوسوسة تُقعد المصلح عن العمل، وتدخله في دائرة التحزين!

العائق الثالث: البيئة المحيطة:

قد تكون البيئة التي نشأت فيها قد أنعم الله عليك بأن جعلها بيئة مساعدة للتزكية، وقد تكون من جملة الابتلاءات التي عليك بيئة عائقة أو معيقة عن التزكية، لكن الذي يجب أن يدركه الإنسان هو أن الوحي قد ذكر المعالم التي يمكن أن تستفيد منها في مختلف البيئات من ناحية التزكية. فأنت تجد مثلا في الوحي ما يتعلق بالصداقة والصديق سواء من حيث الإرشاد الإيجابي أو من حيث التحذير السلبي، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالم عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ

بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾، جاء في الآيات: طريق الرسول، وطريق الضلال، وأثر الخليل السيء، ثم تشويه الشيطان لطريق الرسول وتزيينه لطريق الضلال، وهذا من خذلان الشيطان للإنسان!

البيئة مليئة بالتحديات والعوائق، لذلك من أهم وسائل الضمانات في هذا العائق هو ضرورة إيجاد بيئة للمصلح تكون معينة له على تجاوز تحديات نفس البيئة، لا بد من إيجاد الخيار الإيجابي، إيجاد الخيار الصحيح الحق، وهذا الخيار يجب ألا يكون محل تهاون، وألا يكون محل إرجاء وتأخير، فلا بد من الصحبة والأخوة الصالحة، لأن هذه البيئات هي من أعظم ما يعين الإنسان ليس فقط على تجاوز العائق الثالث وهو البيئة؛ وإنما حتى على العوائق السابقة (النفس والشيطان).

العائق الرابع: الأعداء:

حينما تكون المواجهة صريحة بين الحق والباطل يرتفع التزكي والإيمان، ولكن أحيانا يكون من أدوار الأعداء: الحيلولة بين المسلم وبين الاستقامة والتزكية. وذلك كبثّهم للشبهات مثلا، ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقال ﷻ: ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ كما سمعت الطائفة المؤمنة للمنافقين قُبيل غزوة أحد ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾.

نجح المستشرقون بالفعل اليوم في صرف الكثير من المسلمين عن دينهم وعن الاستقامة وعن التزكية بسبب الشبهات التي يبثّونها. وظهر للأسف من أبنائنا ومن المسلمين من يتبع أولئك المستشرقين فكرا ومنهجا وعملا، وهذا كله من جملة تأثير الأعداء.

الهدف والثمرة من هذا العرض هو أن تدرك وأنت تسير في هذه الحياة أنك تسير بين جملة تحديات، وأنه لا ملجأ ولا مخرج ولا سبيل إلا بالتوكل على الله ﷻ والاعتصام به

والاستهداء به والاستمداد منه سبحانه وتعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيطانِ وَمَن يَتَّبِع خُطُواتِ الشَّيطانِ فَإِنَّهُ يَأمُرُ بِالفَحشاءِ وَالمنكَرِ وَلَولا فَضلُ اللَّهِ عَلَيكُم وَرَحمَتُهُ ما زَكى مِنكُم مِن أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

المحور الثاني: عوائق التزكية من حيث مضامينها:

مضامين عوائق التزكية صادرة عن الأربعة مصادر المتقدمة وهي: النفس، والشيطان، البيئة، ثم الأعداء.

وما يصدر عن هذه المصادر الأربعة هو في مضامينه قسمان: إما شهوات وإما شبهات، والشبهات التي سنذكرها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولا: شبهات فكرية عقدية.

ثانيا: شبهات نفسية.

ثالثا: شبهات منهجية.

وبالنسبة للشهوات سنقسمها إلى قسمين:

أولا: شهَوات متعلقة بالقلب.

ثانيا: شهوات مُتعلقة بالجوارح (جسدية).

هذه خارطة عامة للمضامين.

- ### عرض سريع لخارطة الشبهات :

أولا: الشبهات الفكرية العقدية:

الإلحاد، التشكيك في الثوابت الشرعيّة، التوجّه الذي يظنّ الإنسان أنّه إسلاميٌّ وليس بإسلامي (كتوجه النسوية)، سلطة الثقافة الغالبة، أفكار علمانية ليبرالية... هذه أبرز عناوين التحديّات العقدية والفكريّة التي يمكن أن تواجه المصلِحين في طريقهم الإصلاحي. لأننا

وللأسف نجد اليوم أناسًا مِن الجنسَين عاشوا في وسطٍ إسلاميّ، وفي وسط دعويٍّ، وفي وسطٍ صالحٍ، وربّما عاشوا في مراكز، وربّما عاشوا في محاضن، وربّما حفظوا القرآن كاملًا، وربّما ساهموا في تدريس شيءٍ من القرآن... ثمّ بموجاتٍ معيّنةٍ، وبأسبابٍ متعدّدةٍ؛ وقعوا في الإلحاد! وهذا الخطر لم ينته بعد، فهناك موجات تشكيكيّة جديدة؛ فالحذر الحذر!

لذلك أرى أن أهمّ ما يمكن أن يُركّز عليه ها هنا هو الوقاية أكثر من العلاج، فإذا وقع الإنسان في إشكاليّةٍ معيّنة فهناك سبل معالجة، لكن الخطاب العام الذي يجب أن يوجّه للمهتمّين في الحقيقة هو خطاب الوقاية.

- **وسائل الوقاية:**

الوسيلة الأولى: ضرورة إغلاق ملف دلائل أصول الإسلام معرفيًا

فمن الضروري لطالب العلم في هذا الزمن أن يضيف إلى مكوّناته المعرفيّة مكوّن دلائل أصول الإسلام، أي الدلائل المثبِتة لصحّة أصول ما يعتقده الإنسان المسلم. وهذه الدلائل ليس بالضرورة ألا تكون متضمّنةً للشبهات، وإنّما بناء تقرير، وهذا بحد ذاته يعتبر جرعةً وقائيّة تحمي الإنسان في هذا الزمن، والمراجع والمصادر في مثل هذا الموضوع كثيرةٌ، منها: كتاب: "دلائل أصول الإسلام" المقرّر في برنامج صناعة المحاور. وكتاب "النّبأ العظيم" في دلائل النبوّة...

الوسيلة الثانية: أهميّة العناية بملف الثوابت معرفيًا

الثوابت هي دعائم المنهج الإسلامي الداخلي، وهذه الدعائم مثل: حجية السنة والقرآن... والمنهج كمنهج أصول الفقه مثلا، فهناك قواعد يقول العلماء بضرورة تطبيقها للفهم السريع، لكن نجد من يضاد هذا الاتجاه أو هذه الوسيلة، فيقول بالقراءة المفتوحة للنصّ الشرعيّ. وهذه شبهة ومنهجيّةٌ مغلوطة تُطرح كثيرًا اليوم، يقولون لا توجد قراءة صحيحةٌ، لا يوجد

تفسيرٌ صحيح وخاطئٌ، ما هي الضمانات التي تضمن لي أنّ هناك فهمًا يمكن أن يُصنَّف بأنّه صحيح أو فهمٌ يصنَّف بأنّه خاطئ؟ فهذه ملفّاتٌ أيضًا يجب إغلاقها من الناحية المعرفيّة بالنسبة لطالب العلم والمصلح.

الوسيلة الثالثة: ضرورة البناء الشرعي

وهذه القضيّة في غاية الأهميّة، ولا نرىٰ عذرًا لأيّ إنسانٍ يريد أن يقدّم شيئًا للإسلام والمسلمين، ثمّ يكون خاليًا من العلوم الشرعية، لا نقول بوجوب التخصص في العلوم الشرعية، ولا يمكن أن يكون كل العاملين متخصّصين، ولكن الفكرة هي أنّ هناك قدْرًا أساسيًا مِن العلوم الشرعيّة لا بد منه، فيجب أن نبنيَ مرحلتَين من العلوم الشرعيّة علىٰ الأقل، لأننا اعتدنا أن نقسم مراحل الطلب إلىٰ مراحل أربعة:

المرحلة الأولىٰ: مرحلة التأصيل.

المرحلة الثانية: مرحلة البناء.

المرحلة الثالثة: مرحلة التمكين.

المرحلة الرابعة: مرحلة التوسّع أو التخصص.

ولك أن تجعلها خمس مراحل فتقول: التوسّع ثمّ التخصّص، ولك أن تُجمِل فتقول: التخصّص وهو يحمل في باطنه التوسّع.

ونحن في برنامج البناء المنهجيّ نفترض -بإذن الله تعالىٰ- أنّه سيغطّي ثلاث مراحل من العلوم الشرعيّة: مرحلة التأصيل والبناء والتمكين خلال أربع سنوات.

المهم والغرض أنّه لا يحسن بإنسانٍ في هذا الزمن يريد أن يكون مصلحا أو داعية أو خادما للإسلام والمسلمين في مشروع ممتد، ثمّ لا تكون لديه قاعدةٌ شرعيّةٌ، فهذا ضروريّ جدا، لأن من أهم أسباب تذبذب واضطراب كثير مِن الشباب الذين كانوا في سابقة خير ثمّ مرُّوا

بموجة تحدّيات وصاروا في سياق منفرد، السبب في ذلك أنّه لا توجد قاعدةٌ شرعيّةٌ متينةٌ يأوُون إليها، ويستندون عليها؛ لذلك هذا خيارٌ لا بديل عنه، ولا مناص منه لمن يريد أن يكون مصلحا أو طالبا.

الوسيلة الرابعة: تعلّم وبناء أبجديّات التعامل مع الإشكالات

توجد أبجديّات للتعامل مع الإشكالات الفكريّة التي من المفترض أن يأخذها طالب العلم، وهذه تتمثّل مثلا في القسم الثاني من صناعة المحاور، فهناك مستوى كامل عن هذا الأمر، كأصول الخطأ في الشبهات الفكريّة...

ثانيا: الشبهات النفسية:

لاحظت ملاحظة شخصية في طلاب العلم من الأجيال الجديدة؛ (ما دون ثمانية عشر أو عشرين وما قارب ذلك) وهي وجود بعض التحديات والشبهات النفسية التي لم تكن حاضرة حضورًا واسعًا في الأجيال السابقة من المصلحين، وهي كثيرة، منها: سؤال الثقة بالذات وبالطريق، كمن يشك في نفسه، أي تأتيه مضامين تشكيكية؛ يقول مثلا أنا لا أصلح لكذا وكذا... لكن لا تُعرض بناءً على معطيات معرفية، وإنما تعرض بناءً على ضعف نفس.

وانتشر في زماننا للأسف ما يسمى بسؤال العجز والضعف، فمثلا نجد في السابق طالب العلم يأتي للمسجد ويحضر الدرس ويقوم بكل شيء، يكتب ويلخص ويحفظ ويراجع ويسأل... وكثير من الأحيان لا يجد تجاوبًا أو يتم زجره ومع ذلك يصبر ويحتسب. أما اليوم فقد ضعفت الهمم، فتجد الطالب يطلب تفريغ المحاضرة، ثم إذا وجد ضالته يسأل عن المحاور الأساسية في التفريغ، وعند اقتراب فترة الامتحانات تجده يبحث عن الملخصات! هذا الضعف والعجز للأسف أخذ يظهر ويطفو، وليس بهذه الصورة فقط، بل توجد صور أخرى

كثيرة، فيجب على المصلحين أن ينتبهوا إلى هذه التساؤلات الجديدة والشبهات المنتشرة، وأن يحاولوا تغطية هذه الملفات.

ثالثا: الشبهات المنهجية:

من أبرز الشبهات المنهجية اليوم: سؤال الجدوى والثمرة، تجد الإنسان المصلح مثلا يقول: هل حقا توجد ثمرة إذا عملت للإسلام؟؟ لكن الوضع اليوم يقول باستحالة النجاح فلا أمل ولا جدوى في الإصلاح! فقد جرّبنا وعشنا آمالا وطموحاتٍ وكلّها تكسّرت على صخرة الواقع، فلا ينبغي رفع سقف الطموحات والآمال؛ لأنّ الخير لن يتحقّق، فالعالم كلّه شرٌّ محضٌ!!

فهذا سؤال منهجي شاع في السنوات الأخيرة، وأحيانا يضمره المرء ولا يبوح به، فتجده مثلا يحترق هما، ويبذل ويتعب، ولا يضيع أوقاته، ومتفائل، لكن في النهاية يشحب ويترك ما هو فيه، أو بالكاد تجده ممسكا بطرف الحبل!

وهذا السؤال المنهجي قد يكون سببه وجود بعض المؤثرات الخارجية التي لم يُلق لها بالا ولم يكن مستعدًا لها، ولم يكن عنده جواب عن آثارها فيما لو حصلت، فهو كان يسير في حالة من الرخاء، ولم تكن لديه من التحديات الخارجية ما يستوجب عنده هذا السؤال، فلما جاءت التحديات الخارجية كسرت آماله! وحطمت الآفاق التي كان يسعى لها، وبالتالي نتج عنده هذا السؤال (سؤال الجدوى).

وهذا السؤال لا يدخل في الشبهات النفسية الناتجة عن نفس ضعيفة هشة لم تُرَبّ على درجة عالية من البذل والعطاء والتضحية والصبر، بالعكس؛ فسؤال الجدوى قد يكون صاحبه أو سائله قويًا صبورًا وذا تجربة وتضحية... لكن نظرًا للظروف الخارجية المحيطة التي استجدت

عليه وعلى طريقه لم يعرف كيف يتجاوز مثل هذه الأزمة؛ فقعد عن العمل! فهو إذا سؤال منهجي أقرب من كونه سؤال نفسي.

إذا فسؤال الجدوى والثمرة هو سؤالٌ من الأسئلة الحاضرة الآن في الوسط الإسلامي، وهو سؤال يحتاج إلى انتباه، ويحتاج إلى بناء مناعة مِن أَن يكون عائقا، وطرح هذا السؤال ليس مشكلةً، بالعكس؛ فأنا حينما أطرح هذا السؤال فإنني أريد إجاباتٍ واقعيّة، لكن المشكِل حينما يكون هذا السؤال عائقًا عن العمل.

وهذه بعض النقاط التي يمكن الاستعانة بها للوقاية من الإشكالات التي في هذا الباب:

النقطة الأولى: ضرورة وضوح تعريف الثمرة

لا بد من إعادة تعريف وترسيخ مفهوم الثمرة والنصر والفوز والنجاح بالنسبة لكل فرد مسلم، فضروري أن تعرف الثمرة المقصودة، وتعرف الشيء الذي إذا لم يتحقق تقول فعلا أنّه لم يكن هناك جدوى ولم يكن الأمر يستحق كل هذا الجهد والفكر والوقت. فلا بد من وجود مسلمات واضحة. وهنا نُذكّر بضرورة استحضار:

أولا: واحدة من المسَلَّمات هي أن الإنسان في الإسلام مطالبٌ من حيث التكليف بالعمل، والثمرة والنتيجة على الله ﷻ، وهذه أبجديّةٌ معروفةٌ لا تحتاج إلى طويلِ تقرير، ولها شواهد كثيرة، ففي البخاري أن النبيّ ﷺ قال: «فيأتي النبيّ وليس معه أحدٌ، ويأتي النبيّ ومعه الرجل، والرجلان».

وقصة نوح أيضا معروفة، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وقال عنه سبحانه: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقبل تسع مائة وخمسين سنة التي قضاها نوح في الدعوة فإنه اجتهد وعمل ليلا ونهارا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

فإذا كنت أعمل بشكل صحيح ولم تتحقق ثمرةٌ ملموسةٌ لهذا العمل؛ فهذا في القاموس الإسلامي الشرعي ليس خسارة ولا فشلا، فعند الله ﷻ النتيجة والتقوى، ولا يضيع تعالى أجر من أحسن عملا.

ثانيا: إعادة مركزية الابتلاء، فستأتي عليك أيّام ومراحل تكاد تصل فيها إلى اليأس، والقرآن يبين أن بالثبات والصبر والتقوى واليقين تتغيّر النتيجة والمعادلات: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾، ويقول ﷻ:﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَما يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

فهذه الفكرة وهذه القضية يجب إعادة تعريفها، فالثمرة ليست شرطًا للعمل، ولكن العمل شرط للثمرة، لذلك قال خبّاب رضي الله عنه: «خرجنا من مكّة للمدينة، وهاجرنا في سبيل الله، نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا مَن أَيْنَعَتْ له ثَمَرَتُهُ فَهو يَهْدِبُهَا (يقطفها ويجنيها، والمقصود بالثمرة هنا: النصر والفتح الدنيوي والغنائم)، ومنّا من ماتَ ولم يأكُل من أجرِهِ شيئًا».

النقطة الثانية: معرفة خارطة المشكلات

النقطة الثانية في الوقاية من إشكالية سؤال الجدوى والثمرة هي معرفة خارطة المشكلات، وتاريخها، ومقدار تأثيرها، وعدم اختزال الواقع في نظرة سطحية تؤدّي إلى قراءة غير صحيحة للحلول، فتجد المصلح يستهين بمشكلات الواقع ويظن أن التغيير يسير، وأن الأمّة الإسلاميّة

ستنتصر، وستشرق الشمس على الدنيا ويزول الظلام! لكن الحقيقة أن الموضوع ليس بهذه البساطة، فالمشكلات في الواقع أعقد بكثير جدا مما نتصور!

إن من أبرز الإشكالات التي تؤدّي بالمصلح إلى الإحباط واليأس والقنوط وما إلى ذلك؛ هو أنه لم يقرأ مشكلات الواقع قراءة صحيحة، ولذلك لا بد للمصلح من معرفة مشكلات الواقع، وتعقدها، وتشابكها، وتنوّع أبوابها، وكثرة منافذها، وامتداد جذورها وتاريخها المؤثر، وألا يستعجل الثمرة، وألا يختزل الحلول، وألا يُقدّم الواقع على أنّه واقعٌ بسيطٌ، لأنه ليس كذلك.

النقطة الثالثة: ضرورة إدراك المساهمة في الحلّ والثمرة، وانعدام التفرّد بصناعتها وتقديمها

وينبني على هذا قضيّة التخصّص، وينبني عليه قضيّة المشاريع، وينبني عليه قضيّة التكامل فيما بيننا كعاملين ومصلحين. فأنا أعلم أنّني مسهمٌ، وإذا كنت مسهما فلا شك أن القضية ستحتاج إلى مسهمين آخرين حتى تكتمل الصورة، وهذا ما سيُحدِث حالة من المحبّة والتعاون بين العاملين؛ وبذلك سيرفعون معا تلك الصخرة التي أغلقت الغار.

النقطة الرابعة: ضرورة إدراك الثغور الكبرى المؤثرة في خارطة مشكلات الأمّة الإسلامية، والثغور الصغرى التي يعمل عليها الفرد، وإقامة الجسور بين الثغور الصغرى وبين الثغور الكبرى التي يُعمَل عليها

فمثلا نجد أن واحدة مِن الثغور الكبرى: الإشكالات الفكريّة العقديّة، والمصلح قد يعمل في ثغر صغير في معالجة مشكلة الإلحاد التي تنتمي إلى الثغر الكبير الذي هو التحديات الفكرية العقدية، وطبيعة معالجته لهذه الظاهرة ليست في القضاء على مشكلة الإلحاد، وإنما توفير مادة مرجعيّة يمكن الاستفادة منها في هذا الباب.

مثال آخر: معلم تحفيظ القرآن، قد يسأل (سؤال الجدوى) ويقول: هل هناك جدوى من اشتغالي بتحفيظ القرآن؟ هل أنا على أساس حقيقي أم أنني أخدع نفسي؟

نقول له جوابا على سؤاله: إذا كنت تعتقد أن غاية ما تقدمه هو تحفيظ القرآن، وأن أقصى ثمرة تحققها هي تخريج عدد من الطلاب ليظهروا على المنصات في نهاية العام، ويكرمك حفظة كتاب الله تعالى؛ فهذا عملٌ صالحٌ وخير. لكن كمعالجة لمشروع رسالة لخدمة الإسلام والمسلمين ومعالجة الثغور؛ فهذا ليس على ثغر حقيقي، ولن يكون كذلك إلا إذا اقتنع هو أولا ثم أقنع طلابه ثانيا وغرس فيهم أن حفظ القرآن وسيلةٌ وليس غاية، وهذه الوسيلة تحقق غاياتٍ كثيرة، منها:

1) تعظيم كتاب الله تعالى، وأن يكون له هيبةٌ في النفس، وسطوة على القلب والضمير.
2) أن يكون مصدرَ استمدادٍ عملي لك في التبصر بمعالم الإسلام الكبرى.
3) أن تكون من أهل القيام به في الليل أو في النهار.
4) أن تكون من أهل العمل به بشكل عام.
5) أن يكون وسيلة للتفقه في هذا الكتاب بعد ذلك...

والغايات كثيرة وليس بالضرورة أن تتحقق كلها.

• عرض سريع لخارطة الشهوات:

الشهوات إما قلبية أو جسدية، أما القلبية فمثل الكبر والرياء وحب الجاه والحسد ... وأما الشهوات الجسدية فهي الشهوات المتعلقة بالجنس الآخر، وشهوات النظر، وإطلاق البصر... فهذان النوعان من الشهوات من أعظم ما يعوق الإنسان عن التزكية، فالحذر الحذر!

ومن الأخطاء الشائعة جدا اليوم أن مَن يتكلم عن الشهوات يحصرها في الشهوات الجسدية فقط، لكن الأولى والضروري أن نبدأ بالشهوات القلبية، لذلك جاء في الحديث: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

فالشهوات القلبية هي الأساس المولد للانحرافات في الجسد، وقد سمّاها الله تعالى في كتابه أمراضا، وذكرها في مواضع كثيرة، وهذه الأمراض تنقسم إلى قسمين: أمراض قلوب من ناحية الشبهات، وأمراض قلوب من ناحية الشهوات.

وأغلب ما يأتي من أمراض القلوب في مثل هذا السياق هو الأمراض المتعلقة بالنفاق، والنفاق من أمراض القلوب التي يجب الانتباه إليها وإبرازها حتى تكون مكشوفة وواضحة ويُعلم أنها من أمراض القلوب. والنفاق في القرآن مبحث عظيم جدًا يجب إعادة الاهتمام به، لأن القرآن لا يذكر النفاق بأنه مجرد إبطان الكفر وإظهار الإيمان، بل يذكر الله تعالى على المنافقين صورا من الأعمال التي تدل على نفاقهم، وهذه الأعمال نراها اليوم في الواقع منتشرة، فمن صور النفاق التي يذكرها الله ﷻ والتي تجدها في الواقع كثيرة؛ قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، إلى آخر الآيات. فضعف المنافق وميله إلى القوي وإلى أعداء الله ﷻ، وطعنه في المؤمنين والتشكيك فيهم وفي مسيرتهم ومحاولة إسقاطهم؛ هذا كله من صور النفاق الموجودة في الواقع، والتي يعرضها القرآن بشكل مكثف.

- **معالم الوقاية من الشهوات:**

المعلم الأول: إدراك أنّ كثيرا من المشكلات والتحديات التي تحدث للمصلحين وبين المصلحين ناتجة عن شهوات قلبية داخلية، كالحسد والكبر وغير ذلك. فمن الضروري أن يتم الاهتمام برصد الواقع من هذه الناحية وإيجاد الحلول.

المعلم الثاني: يمكن أن نسمّيه بمعلم ثلاثية المعرفة:

- ✓ معرفة الرّب.
- ✓ معرفة النفس.
- ✓ معرفة الخلق.

وهذه الثلاثية العجيبة، تبدو وكأنها مروحة سريعة تدور وتنُهي وتطرد وتُبعد الأمراض القلبية عن الإنسان، وينبغي عدم الاستهانة بها لأن لها —عمليّا– آثارً جليلة. فكلما تحققت معرفة الرب في القلب، ومعرفة النفس في القلب، ومعرفة الخلق في القلب؛ تأهّل الإنسان لئلّا تؤثر فيه أو تدخل عليه الشهوات القلبية.

الرياء مثلا من أعظم أمراض الشهوات القلبية، ولا يمكن القضاء عليه إلا بهذه الثلاثية، لأن معرفة الرب ﷻ تجعل المرء يستحضر عظمة الله تعالى فلا يتجرأ على أن يُقدم على عمل وقد أشرك فيه مع الله غيره. ومعرفة النفس تجعل الإنسان يستحضر ذنوبه وتقصيره وجرائمه، ويعلم يقينا لو أدرك الناس ما يصنع في سريرته لأبوا السلام عليه، فكيف يوهم الناس أن نفسه كاملة وصافية ويرائيهم وهو يدرك حقيقة نفسه؟ وأما معرفة الخلق، فهل يستحقون أن تضحي بعبادتك من أجلهم؟ كيف جعلت نظر الله لعبادتك ونظر الناس إليك سواء؟ إنّ أكبر ضرر يمكن أن يلحقك في حياتك هو من هؤلاء الخلق أنفسهم، فإذا صفقوا لك اليوم، يمكن أن يرجموك بالحجارة غدا.

إذن فمعرفة الرب ومعرفة النفس ومعرفة الخلق هي ثلاثيةٌ طاردةٌ لكثير من الأمراض والشهوات القلبية، ومن ضمنها الرياء والعجب والكبر وحبّ الجاه... ومُعينة على التخفّف من آثارها وأثقالها.

المعلمُ الثّالث: دوام التزكية، فاستحضار معنى الاحتياج الدائم إلى التزكية هو من أعظم المعينات على التطهر من كلا الشهوات القلبية الجسدية.

المعلمُ الرابع: عدم إسقاط النفس عند الخطأ. قد يحدث أن يسقط المصلح نفسه لأنه وقع في ذنبٍ ما فيتقاعس، وهذا لا يستقيم، فإسقاط النفس وإبعادها عن طريق الصلاح والإصلاح بسبب الذنوب هو من حيل الشيطان، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

المعلمُ الخامس: دوام الاستغفار والتوبة والاستبشار بهذه المداومة، ففي البخاري قال النبي ﷺ: «أَنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّي أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ ﷻ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ أَذْنَبَ فَقَالَ: رَبِّي أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، وَفِي الثَّالِثَةِ قَالَ سُبْحَانَهُ: فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

وقوله تعالى: «فليعمل ما شاء» ليست بمعني فليذنب كماء يشاء، بل معناها أن الله تعالى سيغفر له ما دام يستغفر، لأن الإنسان عند التوبة لا ينوي العودة إلى الذنب أبدا، لكن إذا غلبته نفسه وعاد واستغفر مجددا يجد الله غفارا.

هذه الذنوب برغم ما فيها من الشر؛ فهي من الخير الذي يمكن للمصلح أن يدّخره لنفسه، لأن بهذه الذنوب يذبح صنم الغرور والعُجب، لأنه حين يُبلّغه الله ﷻ مقاماتٍ عالية، ويجعله في مقام النصح والإرشاد والتوجيه وهداية الخلق مثلا، ففي ذاك الوقت يتذكر

الذنب ويقول في قرارة نفسه: "هذا من فضل ربي، فلو أخذني الله بذاك الذنب أو أظهره للناس لما استمع إليّ أحد".

مؤشرات التزكية

فالمؤشرات إذا وُجِدت في الإنسان فإنها علامةٌ على أنه يسير في الطريق الصحيح في التزكية، ومن المؤشرات نجد:

المؤشر الأول: دوام استحضار مراقبة الله ﷻ وتذكر الدار الآخرة:

هذا من علامات صحة التزكية، وعكسه الغفلة. فالذي يكون في أكثر أحواله غافلا عن الاستحضار إلى أن تأتي موعظةٌ تذكِّره؛ فهذا قطعًا في خطر عظيم، والتزكية عنده ناقصة أو قد تكون منعدمة.

المؤشر الثاني: التقوى ومحاذرة الذنوب:

المؤشر الثاني هو التقوى ومحاذرة الذنوب وخاصة في الخلوات، وهذا مؤشر من المؤشرات الواضحة على تحقق التزكية عند الإنسان.

المؤشر الثالث: تعظيم شعائر الله ﷻ:

تعظيم شعائر الله ﷻ وأمره ونهيه مؤشر أيضا من مؤشرات التزكية: ﴿الذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، هذا الوجل والخوف من أعظم مؤشرات التزكية.

المؤشر الرابع: نسبة النعم لله ﷻ:

نسبة النعم لله ﷻ وخاصة وقت الصعود والإنجاز، وهذا من علامات التزكية أيضا، وأعظم نسبة للنعم إلى الله هي التي تتحقق داخل النفس، لا مجرد قول –مثلا– الحمد لله أو هذا من فضل الله... هذا جميل، لكن المعنى الأعظم من هذا هو حين تبحث في نفسك وتلتقط المعنى الداخلي المستقر، فيكون عندك قناعة حقيقية بفضل الله عليك ونعمته عليك فيما أنجزت.

فالذنوب التي سترها الله عليك والتي لولا ستره عليك لما بلَغت ما أنت فيه، هذا شيءٌ مما يذكرك بنعمة الله ﷻ، وغيره كثيرٌ.

المؤشر الخامس: قبول الحق والانقياد له وعدم بطره:

قبول الحق والانقياد له وعدم بطره ورَدِّهِ، وضده الكِبر الذي عرّفه النبي ﷺ بأنه «بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». أي احتقارهم.

المؤشر السادس: الخوف من فقدان نعمة الهداية ودوام الشكر:

الخوف من فقدان نعمة الهداية ودوام شكر لله ﷻ على هذه النعمة. وهذا قريبٌ من المعنى الذي ذكرناه في قضية نسبة النعم لله ﷻ.

المؤشر السابع: القدرة على نهي النفس عن الهوى:

القدرة على الانتصار على النفس ومنعها من مخالفة ما أمر به الله ﷻ. فحين تستطيع أن تتغلب على هذه النفس، فهذا من علامات التزكية: ﴿فَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾.

ولذلك فقد ذكرت أنّ من وسائل التزكية أن يُعوّدَ الإنسان نفسه على مخالفة هواها ولو في بعض الأشياء المباحة، حتى إذا جاءت الأشياء المحرمة يكون بينه وبين نفسه شيء من العادة على القدرة على المخالفة، وهذا منهجٌ له أصول نبوية يمكن تلمّسها في حديث: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْهَانَا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الإِرْفَاهِ». أي الترفه.

المؤشر الثامن: محبة المرء لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه:

هذا من علامات التزكية ومؤشراتها، وهو مضادٌ للحسد: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

فالحسد من أعظم أمراض القلوب التي تعيق التزكية، والحسد في باطنه شيءٌ من الاعتراض على قضاء الله ﷻ وقدره فيما أعطى ورزق الناس. فالله ﷻ كما قسم الأرزاق في الأمور المادية فقد قسمها كذلك في الأمور المعنوية.

المؤشر التاسع: أن يكون السياق التزكوي مستمدا من المدرسة النبوية:

أن تكون معالم السياق التزكوي الذي أعمل فيه برمته مستمدة من المدرسة النبوية، لأنه أحيانا يكون هناك سياق تزكوي كاملٌ وفيه آثار حسنة وحميدة ويتحقق به شيء من المؤشرات، ولكن إذا جاء شيء من السنة الصحيحة الواضحة الصريحة التي لم يُربَّ عليها الشّخص ولم يعرفها شيخه؛ يردها هي ومن جاء بها. وهذا من ضعف التزكية، فمن الخطورة حصر التزكية في وسيلة ظنية معينة وجعلها هي الحق.

المؤشر العاشر: الشعور بلذة الطاعة والعبادة وحلاوة الإيمان:

إلّا أن هذا المؤشر قد لا يأتي في البدايات. فعدم وجود هذا المؤشر في بداية الطريق التعبدي والسلوكي لا يعني أن الإنسان ليس على تزكية، لأن من طبيعة هذا المؤشر أنه يزداد مع علو التزكية.

فهذه إذن مؤشرات عشر لصحة التزكية وتحققها، فإن وجدت بمجموعها فهذه علامة خيرٍ كبيرة جدا للإنسان ونعمة عظيمة عليه، وإن وُجد بعضها فهي نعمة أيضا لكن يسعى الإنسان لتحقيق ما تبقى منها. أما إن كان الإنسان فاقدًا لأكثرها أو لجميعها فهذا مؤشر إشكالٍ يحتاج معه الإنسان إلى إسعاف وإنقاذ نفسه حتى يدير العجلة للأمام بإذن الله تعالى.

ملخص المادة

- **مركزية التزكية**
  - مركزيتها في القرآن الكريم
    - جُعل جزاؤها الجنة
    - جاءت جوابا لأحدى عشر قسما
  - مركزيتها في حياة النبي ﷺ
    - جعلها الله من المهمات الأساسية في حياته
    - تنبيه الصحابة عليها في أعلى درجات التمكين
    - البدء مع النشء فيها
    - أخذت الحيز الأكبر في المرحلة المكية

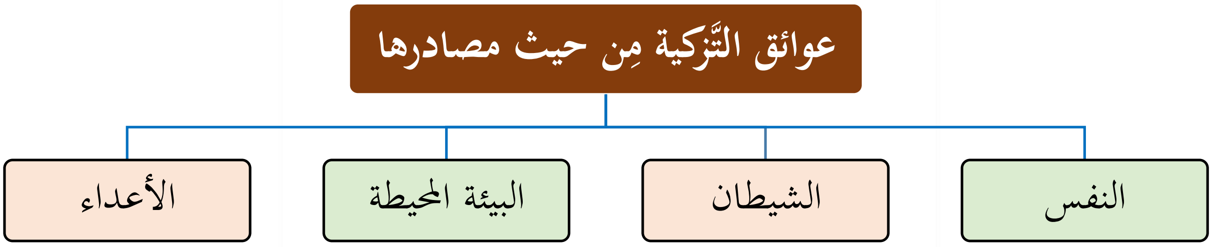
- **مركزية التزكية**
  - مركزيتها من جهة آثارها الحسنة
    - من الناحية الذاتية
      - الصبر على المصائب
      - تُبعد عن الإنسان الأوهام النفسية
    - من الناحية الإصلاحية
      - الثبات
      - عدم الغرور ونسبة الفضل إلى الله عند المكتسبات
  - مركزيتها من جهة الآثار السيئة
    - انحراف البوصلة
    - الحسد بين العاملين أو المصلحين
    - الفتور أو الانقطاع

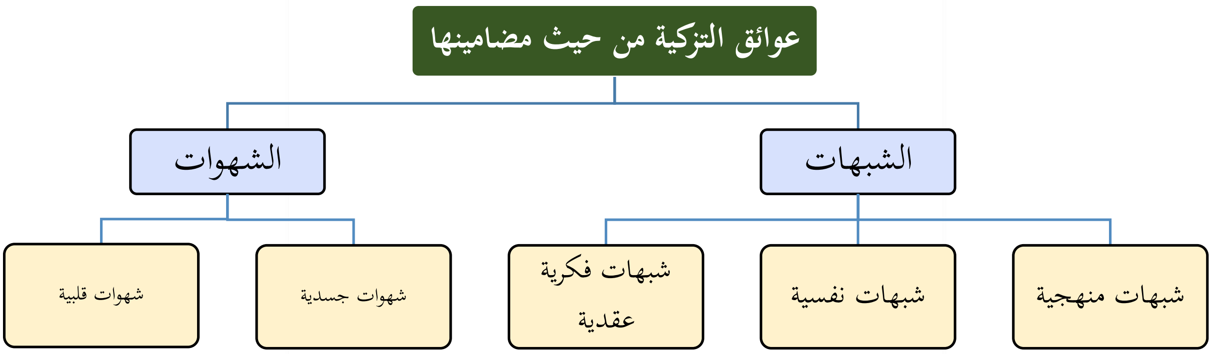
معالم التزكية

- **معلم التخلية**
  - مخالفة الهوى
  - تنقية القلب من أمراضه
    - **الشبهات**: كالشك والنفاق والتعلق بغير الله...
    - **الشهوات**: كشهوات الدنيا...
  - التخلص من المثبطات
    - فضول الأشياء، التعلق باللذات الدنيوية المباحة...
- **معلم التحلية**
  - أعمال القلوب
    - عبادة
      - الإخلاص، الخشية، المحبة...
    - استعانة
      - التوكل، التفويض...
  - أعمال الجوارح
    - فعل
      - الصلاة...
    - ترك
      - غض البصر، الغيبة...

وسائل التزكية

- **وسائل مقدمة وشاملة للتزكية**
  - دوام استحضار حقائق الإسلام الكبرى
  - العلم بالله ﷻ
  - إدراك مركزية العمل في الإسلام
- **وسائل تزكوية متعلقة بالتخلية**
  - تربية النفس على مخالفة الهوى
  - دوام التوبة ولزوم الاستغفار
  - المجاهدة
  - التوكل على الله ﷻ في ترك المعاصي
- **وسائل تزكوية متعلقة بالتحلية**
  - العناية بأعمال القلوب اهتمامًا وعملا
  - الدعاء
  - الصلاة
  - التفكر
  - كثرة ذكر الله ﷻ


عوائق التَّزكية مِن حيث مصادرها
النفس
الشيطان
البيئة المحيطة
الأعداء


عوائق التزكية من حيث مضامينها
الشبهات
الشهوات
شبهات منهجية
شبهات نفسية
شبهات فكرية عقدية
شهوات جسدية
شهوات قلبية

معالم في عوائق التَّزكية

- كثير من المشكلات بين المصلحين ظاهرها فكري ومنهجي، وحقيقتها ضعف تزكوي.
- مما يقي من الشبهات دوام التزكية.
- مما يقي من الشبهات دوام الاستغفار والتوبة.
- مما يقي من الشبهات دوام ثلاثية المعرفة: معرفة الله تعالى / معرفة النفس / معرفة الخلق.

مؤشرات التزكية

- المؤشر الأول: دوام استحضار مراقبة الله سبحانه وتعالى وتذكر الدار الآخرة
- المؤشر الثاني: التقوى ومحاذرة الذنوب
- المؤشر الثالث: تعظيم شعائر الله سبحانه وتعالى
- المؤشر الرابع: نسبة النعم لله سبحانه وتعالى
- المؤشر الخامس: قبول الحق والانقياد له وعدم بطره
- المؤشر السادس: الخوف من فقدان نعمة الهداية ودوام الشكر
- المؤشر السابع: القدرة على نهي النفس عن الهوى
- المؤشر الثامن: محبة المرء لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه
- المؤشر التاسع: أن يكون السياق التزكوي مستمدا من المدرسة النبوية
- المؤشر العاشر: الشعور بلذة الطاعة والعبادة وحلاوة الإيمان

والحمد لله رب العالمين